

الفصل الثاني

حياة الغزالي

قد تكون هناك مندوحة لإغفال الجانب الزمني من حياة الغزالي ، ما دام موضوع الكتاب هو الجانب الفكري . ولكني رأيت مع ذلك أن أواجه شيئاً من العناية . لأن الجانب الزمني من شأنه أن يلتقي ضوءاً على الجانب الفكري .

١

. مولده ونشأته

ولد أبو حامد منتصف القرن الخامس الهجري ، أعفى سنة ٤٥٠ هـ في « طوس » إحدى مدن « خراسان » ، وقد كانت المنازعات الدينية ماثلة فضاء هذه المدينة ، لكثرة عدد المسيحيين فيها وكثرة عدد الشيعيين من المسلمين ^(١) . أما والد « أبي حامد » فقد كان فقيراً صالحاً ، لا يأكل إلا من كسب يده في غزل الصوف ، وكان في أوقات فراغه يطوف على المتفهمة ويحالمهم ، ويتوفر على خدمتهم ، ويجد في الإحسان إليهم والنفقة بما يمكنه عليهم ، وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع ، وسأل الله أن يرزقه ابناً ويجعله فقيهاً واعظاً ^(٢) .

غير أن الأقدار لم تمهله حتى يرى رجاءه قد تحقق ، ودعوته قد استجيبت فقد توفي وما يزال « أبو حامد » صغيراً ، بيد أن أحداً من المؤرخين لم يذكر لنا كم كانت سن « الغزالي » حين توفي والده : إلا أن القرائن تدل على أنه كان صغيراً لم يبلغ سن الرشد بعد .

أما أم « أبي حامد » فلم يعرف التاريخ شيئاً عنها ، سوى أن الأقدار قد

(١) كتاب حياة الغزالي للدكتور (زويمر) ص ٤٤ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ص ١٠٢ ج ٤ .

أمهاتها ، حتى شهدت ما لم يشهده زوجها من بزوغ شمس ابنها في سماء المجد ، وتبوئه أسمى مركز علمي في ذلك العهد .

وللغزالي عم يقول عنه « أبو بكر بن هدايت الله »^(١) : [وله عم هو « أحمد ابن محمد » وكنيته « أبو محمد وأبو حامد » أيضاً ، تفقه على صاحب « الزيادي » واشتهر حتى أذعن له فقهاء الفريقين ، وأقر بفضل علماء المشرقين والمغربيين ، توفي « بنظاران طوس » ولم أعلم تاريخ وفاته ، وحيث يطلق « أبو حامد الغزالي » هو ذلك غالباً لا « حجة الإسلام »] .

عهد والد « أبي حامد » به وبأخ له أصغر منه إلى صديق له متصوف ، وأوصاه أن يتعهدهما بالتربية والتعليم ، وزوده لذلك بما كانت تملكه يده من المال ، وكان قادراً ضئيلاً ، فسرعان ما نفذ ، وكان الوصي بدوره فقيراً ، فنصح لهما أن يلتحقا بمدرسة من مدارس العهد ، التي كانت تمد الوافدين عليها بما يلزمهم من النفقة .

قرأ « الغزالي » في صباه طرفاً من الفقه ببلده « طوس » على « أحمد بن محمد الراذكاني الطوسي »^(٢) وقد كان أستاذه الأول بها « يوسف النساج » ، وكان صوفياً وصار فيما بعد إمام الحرمين^(٣) .

ولا بد أن يكون الغزالي قد بدأ في التعلم صغيراً ، ولا بد أيضاً أن يكون قد أحس في نفسه ميلاً عظيماً للعلم وهو في « طوس » إذ انتقل إلى مركز علمي أكبر في « جرجان » وهو لم يبلغ العشرين بعد^(٤) ، وفيها تعلم على « نصر الإسماعيلي » .

ولم يكن الغزالي يقصر همه على الدروس الدينية ، بل أولى جانباً كبيراً من عنايته لدراسة اللغتين الفارسية والعربية .

ولا نعلم كم أقام في جرجان غير أننا نعلم أنه مكث في طوس ثلاث سنين بعد عودته منها يراجع ما تلقاه في جرجان على إثر تلك الحادثة المشهورة حادثة سرقة

(١) ص ٧١ في كتابه « طبقات الشافعية » وهو موجود بدار الكتب والوثائق القومية رقم ٧٢٩٢ ح .

(٢) كتاب « أبو حامد الغزالي » للأستاذ محمد رضا ص ٦ .

(٣) ص ٥٥ الدكتور زويمر .

(٤) ص ٥٩ زويمر .

للصوص لكتبه . واسترجاعها منهم بعد رجاء عظيم ومخاطرة كادت تودي بحياته .
ولعل هذه الحادثة كانت ذات أثر بين في حياة الغزالي الفكرية ، فقد عودته
- كما يقول المؤرخون - أن يستظهر كل ما يقع تحت يده حتى لا تصبح له حاجة إليه
إذا ما تناولته أيدي العفاء .

٢

في نيسابور

تاقت نفس الغزالي بعد ذلك إلى مدرسة أهم من مدرسة « جرجان » فذهب إلى
« نيسابور » حيث إمام الحرمين « ضياء الدين الجويني »^(١) رئيس المدرسة النظامية
الزاهرة بشتى المعارف .

وهنا تبدأ مرحلة هامة في تاريخ الغزالي ، فقد وجد في المدرسة الجديدة من
فنون المعرفة ما يصلح أن يكون غذاء لعقله المتعطش ، وفي رئيس المدرسة الأستاذ
الكفء . والمدرس الضليع ، فأكب على دروس الفقه والأصول ، والمنطق والكلام .
يتلقفها من فم هذا الأستاذ الجريء . الذى لا يرى بأساً في أن ينقذ « الأشعري »
أو غير « الأشعري » . إذا رأى في كلامهم موضعاً لنقذ أو مجالا لتعقيب .

وسواء صح ما حكاه بعض المؤرخين^(٢) من أن إمام الحرمين كان يضم
الحفيظة والحمد لتلميذه الشاب أم لم يصح ؛ فإن التلميذ كان واجداً في أستاذه
البحر الملىء بالجوهر ، والكنز الوفير الدرر . بدليل أن الغزالي - وهو الشاب
المتوثب المتطلع - حرص على صحبة أستاذه . ولم يفرط فيها حتى كان الموت هو
المفرق بينهما .

في « نيسابور » ابتداء الغزالي حياة الكتابة والتأليف ويقولون^(٣) إن هذه الفترة
التي قضاها في « نيسابور » كانت أخصب أيام حياته العلمية ، إذ برع في أثناءها

(١) المتوفى عام ٤٧٨ هـ .

(٢) هو أبو القاسم بن عساكر في كتابه « تبيين كذب المفتري » ص ٢٩٢ .

(٣) ص ١٨٥ محاضرات الدكتور غلاب .

في المنطق والمحاورة ، وعرف مناهج الفلاسفة ، وطريق الرد عليهم ، وكتب وألف بدرجة تستلفت النظر وتسترعى الانتباه ، لأن معلوماته كانت قد تركزت واتضحت^(١) . وإذا سألنا التاريخ عن الكتب التي ألفها الغزالي في تلك الفترة أجابنا إجابة غامضة .

فالزبيدي في كتابه « إتحاف السادة المتقين ، بشرح إحياء علوم الدين » وهو أوسع مؤرخ للغزالي يجهنا عن هذا السؤال ، فيقول^(٢) : « ثم قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين حتى برع في المذهب والخلاف والجدل والأصليين والمنطق ، وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك ، وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، وتصدى للرد على مبطلهم ، وإبطال دعاويهم ، وصنف في كل فن من الفنون كتباً أحسن تأليفها وأجاد وضعها وترصيفها » .

ولكن ما هذه الكتب التي أحسن وضعها ، وأجاد تأليفها وترصيفها ؟ ! لا يقول الزبيدي عنها شيئاً .

وفي هذا النص ما يفيد أن الغزالي ألف في الرد على الفلاسفة وهو في « نيسابور » مع أنه سيأتي في نص « المنقذ من الضلال » ما يفيد أن الغزالي رد على الفلاسفة وهو في « بغداد » .

فهل رد الغزالي عليهم في نيسابور ورد عليهم في بغداد ؟ هذا محتمل عقلاً ، ولكن لم تصل إلينا إلا الكتب التي ألفها في بغداد ولم ينص لنا الغزالي في كتابه « المنقذ من الضلال » الذي أرخ فيه لنفسه إلا على الكتب التي ألفها في بغداد . ومهما يكن من شيء فإنه يكاد يكون الإجماع منعقداً بين المؤرخين على أن هذه الفترة كانت أحصب حياة الغزالي العلمية^(٣) .

إذا سألنا التاريخ عن مدة إقامة الغزالي في « نيسابور » لم نظفر منه بجواب ، لأنه لم يحدد لنا مبدأ المقام وإن حدد نهايته .

أما سبب خروجه من « نيسابور » فيرى جمهور المؤلفين أن السبب فيه هو الغزالي نفسه ، إذ رأى أن قد آن الأوان ليزج بنفسه وسط هذا المعترك العلمي

(١) سيأتي أن معلوماته لم تتضح إلا في الفترة التي نسميها فترة الهدوء والطمأنينة .

(٢) ص ٧ ج ١ .

(٣) سبب أن هذا غير صحيح .

الذى كانت تدار رحاه أمام « نظام الملك » وفي داره ، ذلك الوزير السلجوقى الذى عرف بتشجيع العلم والعلماء وإجزال الصلات لهم وإحلالهم من مناصب الدولة ما يليق بهم (١) .

ويرى الأستاذ (٢) « ماكدونالد » أن السبب فى ذلك ليس هو الغزالي ، بل تسمح الجو من حوله ، فقد خلق له نبوغه خصوصاً ومناوئين ، أخذوا يقاومونه ويحسدونه وينمون عليه .

وأياً ما كان فقد خرج الغزالي من « نيسابور » عام وفاة إمام الحرمين . أعنى سنة ٤٧٨ هـ . وكان عمره إذ ذاك ثمانية وعشرين عاماً ، وقد كان متزوجاً حينئذ ، لأن التاريخ حدثنا أنه تزوج قبل بلوغه العشرين ، وعاش له ثلاث بنات وقد كان له ولد مات فى طفولته اسمه « حامد » وهو سبب تكنيته « أبا حامد » .

• • •

قطعنا هذه المرحلة الطويلة من عمر الغزالي حاكين قول الغير فيه . فما نصيب هذه المرحلة من حكايته هو عن نفسه ؟

وهنا نجدنا وجهاً لوجه أمام تلك الوثيقة التاريخية الهامة التى ديجتها يراعة الغزالي وهى كتابه « المتقذ من الضلال والموصل إلى ذى العزة والجلال » كما يسميه الغزالي أو « اعترافات الغزالي » كما يسميه الفرنجة .

نشأ الغزالي والعالم الإسلامى بموج — كأنه البحر الزاخر — بمختلف الآراء وشتى النزعات فأزعج الغزالي ذلك .

وإذا كانت هذه الآراء كلها لا يمكن أن تكون صواباً . لأن بينها تبايناً وتضارباً ، ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « ستفترق أمتى ثلاثاً وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة » .

وإذا كان كل فريق يزعم أنه الناجى ، وكل حزب بما لديهم فرحون . وإذا كان الغزالي حريصاً على معرفة الحق من بين هذه الآراء فماذا هو فاعل ؟ ! لا شك أن الحكمة تقتضى عدم اللجوء إلى فريق دون فريق مجازفة وتقليداً ، بل الحزم

(١) وقد مر فى الفصل السابق بيان السر فى ذلك .

(٢) ص ٩٩ زويمر .

يقتضى البحث والتفتيش . وتحكيم العقل ؛ واستعمال النقد الجيد الجريء . وهذا ما صنع الغزالي قال (١) :

[ولم أزل في عنفوان شباني ، منذ راهقت البلوغ : قبل بلوغ العشرين إلى الآن . وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم بلجة هذا البحر العميق . وأخوض غمراته خوض الجسور . لا خوض الجبان الحذور . وأتوغل في كل مظلمة . وأتهجم على كل مشكلة . وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة وأستكشف أسرار كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ومستن ومبتدع] .

لكن هذه المهمة الخطيرة التي انتدب لها الغزالي نفسه . مهمة استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، لا يحسنها كل من حاولها ، لأنها تتطلب استعداداً خاصاً ومواهب خاصة . وقد كانت العناية الإلهية قد زودت الغزالي بهذا الاستعداد ، وحبته بتلك المواهب .

[وقد (٢) كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمرى وريعان عمرى . غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلي لا باختيارى وحيلتي ، حتى انحطت عنى رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا] .

لا ريب أن ترك التقليد جانباً واطراح العقائد الموروثة ووضع الآراء المتقابلة المتباينة على بساط البحث ، لاختيار ما يثبت النقد جودته وصلاحيته . شك أو بواذر شك .

والشك — ككل الأمور النفسية البحتة — لا يظهر فجأة وإنما يدب إلى النفس ديباً خفياً . حتى ربما لا تشعر به نفس صاحبه . ثم لا يزال يقوى على الأيام شيئاً فشيئاً حتى يضايق النفس ويخنقها .

كذلك قد يعمل عليه جملة أسباب متضافرة يعاون بعضها عمل بعض . وقد يخفى بعض هذه الأسباب وينزوى فلا تقع عليه عين الباحثين . لهذا يختلف كثيراً حول تحديد زمنه وتحديد أسبابه .

(١) ص ٦٥ من المنقذ .

(٢) ص ٦٧ من المنقذ .

ومن هنا اختلف الباحثون حول تحديد هذه الأزمة النفسية التي انتابت الغزالي .
فالأستاذان « كامل عياد » و « جميل صليبه » يقولان^(١) : [وكان أول
الشك عنده انحلال رابطة التقليد] .

وانحلال رابطة التقليد كان - كما نص الغزالي نفسه - على قرب عهد بن
الصبا . فيكون الشك قد خامر نفسه وخالطها - على رأى هذين العالمين - قبل
مغادرته « نيسابور » قطعاً . لأنه غادرها كما سبق التحقيق . وهو في الثامنة والعشرين
من عمره .

ولمثل هذا الرأى ذهب الأستاذ « ديور » حيث يقول^(٢) [ثم درس علم الكلام
في « نيسابور » على إمام الحرمين . ولعل الشكوك كانت قد بدأت تتطرق إلى علسه
أثناء هذه المدة] .

أما الدكتور زويمر فلا يحدد مبدأه . وإنما يحدد نهايته فيقول^(٣) [ونحن
نعلم أن تاريخ اهتدائه بعد شكوكه هو سنة ٤٨٨ هـ]^(٤) .

كذلك الأستاذ ماكدونالد يتردد في تحديد مبدأ هذه الأزمة النفسية إذ يقول^(٥)
[لست على يقين فيما إذا كان الغزالي قد انقاد وهو في نيسابور إلى شكوكه التي
تكلم عنها في « المتفقد » أم لا ؟ ولا بد أن تكون قد تملكته منه قبل سنة ٤٨٤ هـ^(٦) .
وهي نتيجة تطورات كثيرة اعترت نفسه . ولكن يحتمل أن يكون قد
ظل معتمداً بالإيمان القديم أثناء جلوسه تحت قدمي أستاذه إمام الحرمين ذلك
الصوفي الغيور » .

وعندى أن الشك قد لعب مع الغزالي دورين هاميين :
دور كان فيه الشك خفيفاً سمحاً من النوع الذي يعترى كثيراً من
الباحثين .

(١) في مقدمتهما لكتاب المتفقد ص ٤٥ .

(٢) ص ١٩٩ تاريخ الفلسفة في الإسلام .

(٣) ص ٨٤ « الغزالي » .

(٤) يوافق خروج الغزالي من بغداد .

(٥) ص ٦٢ زويمر .

(٦) وهذا العام يوافق توليه منصب التدريس بمدرسة بغداد .

ودور كان فيه الشك عنيفاً هداماً من الصنف الذى يعترى كبار الفلاسفة والمفكرين .

أما الدور الأول فيتمثل فى أن الغزالي رأى أمامه فرقاً متعددة . وآراء متنازعة ، متباينة . فرأى أن ينصف من نفسه ومن هذه الفرق جميعاً فألغى سلطة الآراء الموروثة واطرح قداستها ، وأخذ يبحث عن الحق من بين هذه الفرق ، فشكه فى هذه المرحلة يتشخص — إن صح هذا التعبير — فى أى هذه الفرق على حق ؟ ! ولكن بأى ميزان يوزن هذا الحق ؟ . هذا ما لم يدر بخلده فى ذلك الوقت ، وطبيعى ألا يدور ، لأن الشك فى ميزان الحقيقة مرحلة متأخرة . فالباحث أول ما يشك ، يشك فى نفس الآراء فيروح يختار منها ما يؤيده الدليل ، ويلغى ما يعوزه الدليل فإذا رأى رأيين متقابلين قد اعتصم كل منهما بدليل ، اضطرب واختلط عليه الأمر ، ولكنه لا يلبث أن يتنبه إلى أن العيب فى نفس الأدلة . وهنا يتجه فكره إلى النظر فى نفس الأدلة . وفى موازين الحقيقة ، فأحياناً يهتدى إلى ميزان يرتاح إليه فيقبل أو يرفض الآراء على هداه . وأحياناً يشك فى كل الموازين ولا يرى واحداً منها صالحاً للوزن به . وهذه أخطر حالات الشك وأعقدها . وهذا ما وقع للغزالي آخرأ . وتاريخ الفلسفة يدلنا على أن الشك أو البحث مطلقاً حول ميزان الحقيقة خطوة تالية ومرحلة ثانية .

شك الغزالي أول ما شك على هذا النحو السطح الخفيف . فأخذ يبحث عن الحق من بين اضطراب هذه الفرق ، معولاً على العقل وعلى الحواس . وعلى ظواهر القرآن والسنة ، وعلى القضايا المشهورة ، فهذه كلها كانت موازين الحقيقة لذلك العهد . فلا بد أن يجربها الغزالي ، ولا يعقل أن يتخطاها ويهملها دون أن يجربها ، فأحس تضارب الأدلة ، — أى إنتاجها نتائج متضاربة — كما حدث هو فى كتابه « جواهر القرآن »^(١) . قال حاكياً عن قوم : [وتناقضت عندهم ظواهر الأدلة ، حتى ضلوا وأضلوا] ثم قال حاكياً عن نفسه : [ولسنا نستبعد ذلك فاقمدهم تعزناً فى أذيال هذه الضلالات مدة] .

وكان طبيعياً أن تتضارب الأدلة ، لأن درجتها من القوة والضعف ومن الصواب

وانحطاً ليست واحدة . فكان لا بد له أن يوجه النظر إلى نفس الأدلة ويفحص موازين الحقيقة .

وقد فحص « أبو حامد » هذه الموازين في ضوء تحديده للعلم اليقيني^(١) [فما دام العلم اليقيني هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط . ولا يتسع القلب لتقدير ذلك . بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً . والعصا ثعباناً . . لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً . فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة فلو قال لى قائل : لا . بل الثلاثة أكثر ؛ بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعباناً وقلها . وشاهدت ذلك منه . لم أشك بسببه فى معرفتى . ولم يحصل منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه . فأما الشك فيما علمته فلا . ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه . وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى] .

أقول : ما دام العلم اليقيني — فى نظر الغزالي — ما استكمل هذه الصفات فالميزان الصحيح هو الذى يحصل هذا النوع من العلم ؛ وهنا نجد الغزالي شارف أن يدخل فى الدور الثانى من أدوار الشك ، دور العنف والهدم .

اطرح الغزالي عند النظرة الأولى سائر الموازين . ولم يستبق سوى العقل والحواس فإنهما من القوة والوثاقه بحيث يظهر للإنسان لأول وهلة أنهما يوصلان إلى هذا النوع من العلم الذى ينشده الغزالي أما ما عداهما من الموازين الأخرى التى كانت معروفة فى ذلك العهد فلم يرتب من أول الأمر فى أنها لا توصل إلى اليقين .

ولكن الغزالي — على سبيل الحيلة والحذر — لم يقبل ميزانى العقل والحس على علاقتهما . بل أخذ يشكك نفسه فيهما ويتقصى ما عسى يكون فيهما من ضعف . فيرفضهما على أساس أو يقبلهما على أساس .

[فأنهى^(٢) فى طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى

(١) ص ٦٩ من « المنقذ » .

(٢) ص ٧١ من « المنقذ » .

المحسوسات ، ومن أين الثقة بها ! ؟ . وأقوى الحواس حاسة البصر وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنى الحركة ثم بالتجربة والملاحظة بعد ساعة تعرف أنه متحرك . وأنه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدريج ذرة ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف ، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار .

هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ويكذبه حاكم العقل ويخونته تكذيباً لا سبيل إلى مداخلته [.

بطلت الثقة بالحواس فلم يبق إذن إلا العقل فإذا كان موقف الغزالي منه ؟ ! وما نتيجة التشكيك فيه ؟ ! هل نال منه كما نال من الحواس ؟ أم أثبت العقل قدرته وجدارته ؟ !

لا شك أن الغزالي قد استطاع بنقده للحواس أن ينال منها وأن يضعف من شأنها ويحط من قدرها . لكن موقفه من العقل كان على خلاف ذلك إذ لم يستطع أن يقف له على زلة . أو يضرب مثلاً يكون قد زاغ فيه عن الجادة ، وكان كل ما فعله أن أبدى احتمالاً ضعيفاً إلا أنه على أية حال غص من قدر العقل وشكك فيه قال (١) :

[قالت لي المحسوسات : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثفتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً بي فجاء حاكم العقل فكذبني ؟ ! ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي . فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر إذا تجلى كذب العقل في حكمه . كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلى ذلك الإدراك لا يدل على استحالته .

فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلا ، وأيدت إشكالاتها بانمام وقالت . أما تراك تعتقد في النوم أموراً وتخيّل أحوالاً . وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ولا تشك في تلك الحالة فيها ؟ ! ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك أصل وطائل ، فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل بالإضافة إلى حاللتك التي أنت فيها ، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوعاً بالإضافة إليها : فإذا وردت تلك الحالة

تيقنت أن جميع ما توهمت خيالات لا حاصل لها .

ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم ؛ إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم — إذا غاصوا في أنفسهم وغابوا عن حواسهم — أحوالا لا توافق هذه المعقولات .

ولعل تلك الحالة هي الموت . إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » فاعل الحياة نوم بالإضافة إلى الآخرة، فإذا مات — أى الإنسان — ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » . . . [

أكثر أبو حامد من اللف والدوران حول العقل ؛ لأنه قوى لم ترهبه هجمته . ولم تصب مقتله رميته . وإن نالت منه بعض الشيء ؛ على العكس من الحواس التي بنبل أو نبيلين أرداها قتيلا . ثم تركها وانصرف .

ومهما يكن من شيء فقد نفى الغزالي يده من العقل والحواس كليهما . فإذا بقى له يا ترى ؟ لم يبق له إلا الشك العنيف قال (١) :

[فلما خطرت لى هذه الخواطر . وانقدحت فى النفس . حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر ؛ إذ لم يمكن دفعه إلا بالدليل . ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية ؛ فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل ؛ فأعضل الداء ودام قريباً من شهرين . أنا فيهما على مذهب السفطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال] .

وهذه هي أزمة الشك العنيفة ، التي تحدث عنها ماكديونالد . وشك هل كانت في « نيسابور » أم كانت في بغداد . ورجح أن يكون الغزالي قد ظل معتصماً بالإيمان القديم أثناء جلوسه تحت قدمي أستاذه : إمام الحرمين ذلك الصوفي الغيور . وإني أقول : لعل صوفية إمام الحرمين وغيرته هاتين . هما السبب في إحداث ذلك النفور — الذى وقع بين الأستاذ وتلميذه . والذى تحدث عنه المؤرخون فحسبوه غيرة الأستاذ من تلميذه — حين أحس الأستاذ من تلميذه أزمة الشك هذه .

وأما ما قبل ذلك فهو الدور الخفيف . الذى تحدث عنه صاحباً مقلعة المنقذ والأستاذ « ديبور » .

شنى الله الغزالي من هذا الدور الخطير سريعاً . إذ لم يمكث معه سوى شهرين . وأما الدور الخفيف فقد ظل معه إلى أن خرج يتخبط في الصحارى والقفار هائماً على وجهه في إثر الحقيقة^(١) .
قال « الغزالي »^(٢) :

[وعادت نفسى إلى الصحة والاعتدال - أى بعد مرض الشهرين - ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين : ولم يكن ذلك بنظم دليل ولا ترتيب كلام . بل بنور قذفه الله في الصدر . وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف : فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة . فقد ضيق رحمة الله الواسعة . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشرح ومعناه في قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » قال : « هو نور يقذفه الله تعالى في القلب » فقيل : وما علامته ؟ قال : « التجافى عن دار الغرور . والإنابة إلى دار الخلود » . وهو الذى قال عليه السلام فيه : « إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره » . فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف . وذلك النور ينبجس عن النور الإلهى في بعض الأحيان . ويجب الرصد له : كما قال عليه السلام : « إن لربكم في أيام دهركم نفحات . ألا فتعرضوا لها] .

خرج الغزالي من هذه النبوة العنيفة واثقاً بالعقل فحسب : أما ما عداه من الموازين فهو لا يزال مطرحاً بعد . لم يعد إليه الوثوق به .

وهذا العقل أو هذه الضرورة العقلية كما يسميها هو . ما دامت موثوقاً بها هذا الوثوق التام . فإنها يمكن أن تتخذ وسيلة إلى الحقيقة والعلم اليقيني اللذين ينشدهما الغزالي .

وبهذا خرج الغزالي من الشك الذى كان دائراً حول موازين الحقيقة : فهو الآن قد رضى الضرورة العقلية ميزاناً .

(١) كما ستحدث عنه بعد .

(٢) ص ٧٥ من المنقذ .

أما الشك في أى هذه الفرق على حق ؟ أو عند من من هذه الفرق يوجد العلم اليقيني ، فلم يخرج منه بعد ، بدليل أنه سيعقد لهذه الفرق امتحاناً دقيقاً في ضوء هذا الميزان ، وسيعقد هذا الامتحان في بغداد^(١) .

٣

في المعسكر

وسواء صح ما قيل من أن مؤامرات دبرت حول الغزالي في نيسابور أم لم يصح ، فقد خرج منها ، وبخروجه منها ودّع حياة التلمذة نهائياً .
نعم إنه كان في نيسابور يلتقي دروساً ويعلم - كما سبق القول - ولكنه كان أيضاً يجلس من إمام الحرمين مجلس التلميذ من الأستاذ ، ويجلس المتعلم من المعلم ، وبموت إمام الحرمين انتهى ذلك العهد نهائياً .
خرج الغزالي من نيسابور عام ٤٧٨ هـ إلى المعسكر ، قاصداً نظام الملك ، وكان المعسكر محط رحال السلاطين السلجوقيين ، منسقا على أحسن نسق ، مفصلاً بميادين وشوارع ؛ كأنه مدينة شادتها قوة السحر ، على سهول قاحلة ، حوى مجموعة أنيقة لألوان من الخيام والمساكن المختلفة^(٢) .
ويقول الدكتور زويمر^(٣) : [إن الغزالي قصد إلى المعسكر ليظهر على خصومه ، وينال أوسمة العلم والشرف . فإن نظام الملك كان أكبر رجل في الإمبراطورية ، وحاكمها الحقيقي ، وقد أسس مدارس في مدن مختلفة لتشجيع العلم] .
ولعل الدكتور زويمر لم يظلم الغزالي ؛ فسيأتي نذكر له اعترافات بهذا المعنى ، ولعل الغزالي نال ما كان يرجئيه ، من الظهور على الأقران ، واعتراف الناس له بقوة العارضة ، واتساع دائرة المعرفة ؛ فقد طار اسمه في الآفاق ، واشتهر في الأقطار ، فولاه نظام الملك عام ٤٨٤ هـ التدريس في مدرسته ببغداد ، التي كانت

(١) فلنرجى الكلام عليه حتى نؤرخ له فيها .

(٢) ص ٦٣ زويمر .

(٣) ص ٦٣ زويمر .

إذ ذاك عاصمة العالم الإسلامي بالشرق .

خرج الغزالي من نيسابور عام ٤٧٨ هـ إلى المعسكر ، وظل به حتى ولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد عام ٤٨٤ هـ . فتكون المدة التي قضاها في المعسكر خمس سنوات .

فكيف قضى الغزالي هذه المدة ؟ ! خمس سنوات كاملة ليست قليلة في حياة العلماء الذين يعرفون كيف تغتم الفرص ، وكيف تنتهب الأوقات ، خصوصاً عالماً كالغزالي عرف بكثرة الإنتاج ، فلا يعقل أن فترة طويلة كهذه يقضيها الغزالي في غير عمل جدى وهو الذى يقول^(١) :

« وتضييع الوقت بهذا وأمثاله — يشير إلى خلاف المعتزلة والأشاعرة في تحديد معنى الرزق — دأب من لا يميز بين المهم وغيره ، ولا يعرف قدر بقية عمره . وأنه^(٢) لا قيمة له ، فلا ينبغي أن يضيع العمر إلا بالمهم . وبين يدي النظار أمور مشكلة ، البحث عنها أهم من البحث عن موجب الألفاظ ، ومقتضى الإطلاقات . فنسأل الله أن يوفقنا للاشتغال بما يعيننا [. ولكن بالتحديد على أية حال كان يقضيها ؟ هذا ما لا نعرفه .

وإذا رحنا نسأل التاريخ هذا السؤال ؛ أمسك حتى لا يكاد يبين . وهذه فجوة كبيرة في تاريخ الغزالي ، تتلهف نفس المؤرخ لمعرفة ما دار فيها ، وما شغلها . وكيف كان يقضيها .

وهذا وأمثاله في تاريخ الغزالي ما جعل الدكتور زويمر يقول — بحق —^(٣) :

[إن تاريخ الغزالي محوط بالأمور المربكة ، حتى لأولئك المؤرخين الذين سطوروا مؤلفاتهم بعد مائة بقرن واحد ، فهناك بعض الغموض في تاريخ سفراته وترتيبها الزمني ، بل وخلاف في أسماء الأماكن التي جابها] .

فهل قضى الغزالي هذه الفترة في عقد مجالس المناظرة والجدل ومطارحة الآراء؟! لا بد أنه قد حصل شيء من ذلك ، فإن اعتراف الأقران له ، وتظامهم أمامه .

(١) ص ١٠٢ الاقتصاد .

(٢) معنى : ودأب من يعرف أن عمره لا قيمة له .

(٣) ص ٣٤ .

واختيار « نظام الملك » له، ليكون رئيس أكبر مدرسة في ذلك العهد ، لا يكون إلا نتيجة لمثل هذا .

لكن هل شغل كل هذه المدة الطويلة ، في هذا العمل الذي تكفي منه المرة والمرتان ، لبلوغ هذه الغاية ؟ !

أم كان يقضى هذه الفترة سابقاً مع وسوسه وشكوكه . مختلياً بنفسه ، مقبلاً الرأى على وجوهه ؟ !

أم كان يقضى هذه الفترة باحثاً ومؤلفاً في علم الكلام ؟ !

لعل هذه الأمور كلها مجتمعة هي التي استفدت منه هذه الفترة ، التي ليست بالقصيرة في حياة الغزالي الحافلة بشتى البحوث .

أما المناظرة والجدل ، فقد نص التاريخ على حدوثهما من الغزالي في هذه الفترة بين يدي نظام الملك .

أما الوسوس والشكوك فلا يمكن أن تكون قد برحت ذهن الغزالي ؛ لأن هذه للشكوك ما زالت تذف به من علم إلى علم ، ومن بلد إلى بلد . حتى خرجت به إلى الصحارى والقفار ، فتصوف^(١) ولبس المرقعة . كل ذلك من أجل الحقيقة ، وكل ذلك تحت تأثير أزمة الشك التي نزلت به .

وأما الاشتغال بعلم الكلام بحثاً وتأليفاً ، فالغزالي يحدثننا أنه بعد أن وثق بالعقل ، ومبادئ الفكر الأولية ، أخذ يدرس مناهج الحقيقة عند الفرق الأربع التي كانت معروفة في عهده على هذا الترتيب :

أولاً : علم الكلام .

ثانياً : الفلسفة .

ثالثاً : مذهب التعليمية (أصحاب الإمام المعصوم) .

رابعاً : مذهب الصوفية .

فنظر في علم الكلام ، وقال فيه : ما قال^(٢) .

ثم نظر في الفلسفة وهنا قال (١) :

[فشمرت عن ساعد الجسد ، في تحصيل ذلك الجلم من الكتب ، بمجرد المطالعة ، من غير استعانة (٢) بأستاذ ؛ وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية ؛ وأنا مَمْنُوٌّ بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفس من الطلبة ببغداد] .

ولم ينص هذا النص وهو قوله : « وأنا ببغداد » إلا بإزاء الفيلسفة ، مع أن نظره في علم الكلام كان سابقاً على الفيلسفة ، فلربما كان ذلك منه تأريخاً لدخوله بغداد ، فيكون نظره وتأليفه في علم الكلام سابقاً على دخول بغداد ، فيكون في المعسكر .

ولو صح ذلك لكان دليلاً على أن أزمة الشك العنيفة وقعت في المعسكر أو في نيسابور .

وسواء أكان نظر الغزالي في علم الكلام ، في المعسكر أم في بغداد ، فإن علم الكلام لم يرق الغزالي ، ولم يثبت جدارته وصلاحيته ، أمام الامتحان الذي عقده له الغزالي ، فلم تكن الحقيقة في نظر علماء الكلام هي الحقيقة التي ينشدها الغزالي قال (٣) :

[ثم إنى ابتدأت بعلم الكلام ، فحصلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير واف بمقصودي] .

أما مقصود علم الكلام - كما حكى الغزالي - فهو حفظ العقيدة على إنسان نشأ مسلماً ، ولقن عقيدته تلقيناً ، من أن يشوشها عليه المبتدعون والمخالفون : بأن يرد عليهم كيدهم في نحورهم ، ويلزمهم محالات وشناعات تشككهم فيما هم عليه . أما أن يخلق علم الكلام علماً يقينياً في إنسان شك فيها ، فهذا ما لم يحاوله علم الكلام ، وما لم يكن من مهمته .

(١) ص ٨٣ من المنقذ .

(٢) ولعل الذي سهل عليه تلك المطالعة من غير استعانة بأستاذ ، سابق اشتغاله بالفلسفة في نيسابور ، كما دل عليه النص الذي اقتبسناه من الزبيلي .

(٣) ص ٧٩ من المنقذ .

وقد قضت عليه مهمته تلك أن يأخذ مقدماته من هؤلاء المخالفين ، ليؤاخذهم بلوازم مسلماتهم ؛ وهي مقدمات واهية ضعيفة ؛ لذلك يقول الغزالي (١) :

[وكان أكثر خرضهم - يعني علماء الكلام - في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم] .

هذا هو مقصود علم الكلام ؛ أما مقصود الغزالي فهو إدراك الحقيقة إدراكاً تؤيده الضرورة العقلية ، التي لا وثوق له إلا بها ، حتى تكون من نوع العلم اليقيني الذي حدده .

وستان ما بين المقصدين لهذا يقول (٢) الغزالي مشيراً إلى علم الكلام :

[وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً ، فلم يكن الكلام في حق كافياً ، ولا لدائى الذى كنت أشكوه شافياً . . .]

فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الخيرة في اختلاف الخلق ، ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك لغيرى ، بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة ، لكن حصولاً مشوباً بالتقليد في الأمور التي ليست من الأوليات .

والقصد الآن حكاية حالى ، لا الإنكار على من استشقى به ، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ؛ وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به آخر] .

٤

في بغداد

لم يك بد للغزالي من أن يلتمس الحقيقة عند فرقة أخرى ، من الفرق الأربع التي سبق تعدادها ، والتي حصر الغزالي الحق فيها .

اتجه نحو الفلسفة . وقد عرفنا من قبل أن الغزالي وثق بالأوليات العقلية ؛ وراح ينشد الحقيقة في ضوءها ؛ وقد عرفنا أيضاً أن علم الكلام لم يثبت جدارته أمام هذا الامتحان ، الذى عقده الغزالي للفرق المختلفة ؛ لمعرفة حظ كل منها من الحق .

(١) ص ٨٠ من المنقذ .

(٢) ص ٨١ من المنقذ .

وقد يبدو عند أول وهلة أن الفلسفة سوف تحوز قصب السبق ، في هذا المضمار ، لأن منهجها عقلي صرف .
يقول الأستاذ أحمد أمين^(١) :

[أما الفلاسفة : فهم يبحثون المسائل بحثاً مجرداً ، ويفرضون أن عقولهم خالية من مؤثرات ومن اعتقادات ؛ ثم يبدوون النظر منتظرين ما يؤدي إليه البرهان ، سائرين خطوة خطوة ، حتى يصلوا إلى النتيجة كائنة ما كانت ، فيعتقدونها .. هذا هو الغرض من الفلسفة والعمدة فيها .

فموقف الفيلسوف موقف قاض عادل ، تعرض عليه قضية ، لا يكون فيها رأياً ، حتى يسمع حجج هؤلاء وهؤلاء ، ويزنها كلها بميزان دقيق من غير تحيز ، ثم يكون فيها رأيه ، ويصدر فيها حكمه] .
ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :^(٢)

[أما مذهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ؛ ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة إلا لتحصيل العلم ، والوفاء بما تندفع إليه رغبة العقل : من كشف مجهول أو استكناه معقول] .

نعم إن الفلاسفة المسلمين ، الذين عرج عليهم الغزالي بعد أن أعوزته الحقيقة عند علماء الكلام ، لم يكونوا على هذا النهج ، ولم يتذرعوا بهذه الخطة التي رسمها الأستاذ الإمام والأستاذ أحمد أمين ، إلا أن الفلسفة الإسلامية هي نتاج عقل الإغريق في الحملة ، والفلاسفة المسلمون قبلوها أيضاً ؛ لأنها وافقت عقولهم : فالعقل الإغريقي أنتج ، والعقل الإسلامي تلقى وشرح ، فهي مترددة بين العقل لإنتاجاً وشرحاً .

نعم إن الأفلاطونية الجديدة والفلاسفة المسلمين قد أدخلوا فيها جانباً دينياً ، ولكن أيضاً على أساس عقلي ؛ ولذلك اتهم الفلاسفة الإسلاميون بأنهم جذبوا الدين إلى الفلسفة ، ولم يجذبوا الفلسفة إلى الدين ، فاتخذوا الفلسفة أصلاً وحواروا في قضايا الدين حتى تلتئم معها .

(١) ص ١٨ - ٣ ضحى الإسلام .

(٢) ص ١٩ رسالة التوحيد .

فكان المظنون أن الغزالي في هذه الحال الملازمة له ، حال الوثوق بضرورة العقل . يقبل الفلسفة الإسلامية ، أو على الأقل يقبل منها ما لم تتناوله يد التعديل . ولكننا نجد الغزالي يردّها جميعاً : ما عدل منها وما لم يعدل .

وقد بين ابن رشد في كتابه « تهافت التهافت » أن الغزالي رد بين ما رد ، مسائل إغريقية صرفة لم تتناولها عقول المسلمين بشيء من التغيير ، وكل ما لهم فيها . إنما هو شرح وإيضاح . وهذه المسائل هي التي عاب ابن رشد على الغزالي ردّها . واتهمه بصددها بالجهل أو عدم الإنصاف .

نعم قد يبدو أن الفلسفة سوف تحوز قصب السبق في هذا المضمار ؛ ما دام أنها نتاج عقلي . وما دام ميزان القبول والرد في نظر الغزالي الآن هو العقل . ولكننا ندهش حين نجد الغزالي قد أعلن على الفلسفة حرباً لا يزال نفعها مثاراً حتى اليوم . ولقد تزول هذه الدهشة حين نعلم أن الغزالي لاحظ أن العقل وحده لا يمكنه أن يصل إلى اليقين في مسائل ما وراء الطبيعة^(١) ؛ وحجته في ذلك أن الفلاسفة الإغريق الذين كانوا يتذرعون في أبحاثهم بالعقل فقط ، قد اختلفوا فيها اختلافاً عظيماً ولم يتفقوا فيها على رأى .

فالغزالي لم يغض من قدر العقل مطلقاً ، ولم يسمه بالنقص بإزاء جميع المسائل ؛ بل بالنسبة لمسائل ما وراء الطبيعة فقط . إذ أننا لم ننس بعد تلك العبارات التي اقتبسناها من أول كتاب المنقذ ، والتي تفيد أن الغزالي ما كاد يبلغ درجة النضوج العقلي ، حتى أدرك الحال التي عليها العالم الإسلامي حينئذ : من اضطراب في الآراء ، وتباين في الأفكار . بخصوص العقيدة الدينية . حتى ظن أن قد تحقق حديث الرسول الكريم « ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » .

والتي تفيد أيضاً أن هذه الحال قد استرعت انتباه الغزالي ، فلم يرض لنفسه أن يعتصم بواحدة من هذه الفرق ، ويعتقد بصدق ما دعت إليه مجازفة وتقليداً ، بل راح يطلب الحقيقة بنفسه من بين اضطراب هذه الفرق ، معولاً على البحث الحر والنقد الجريء ، حتى آل أمره إلى أن شك شكاً ، لعب معه دورين كبيرين ،

(١) ويوافق ابن رشد الغزالي في هذا الرأى ، انظر تهافت التهافت .

ثم شفاه الله من أخطرها ، وما نزال معه إلى الآن في الدور الآخر .

يتضح من كل هذا ، أن الغزالي لم يكن يبحث عن الحقيقة المطلقة ؛ أعنى الحقيقة الشاملة لجميع نواحي الوجود ، كما هو الشأن في الفلاسفة الذين يتناوون جميع نواحي العلم بحثاً وتمحيصاً واستنتاجاً ؛ فيبحثون في الرياضيات ، وفي الطبيعيات وفي المنطقيات ، وفي الإلهيات ... إلخ .

ولإنما كان يبحث في مسائل العلم الإلهي ، وفي مسائل طبيعية تتصل به : فلا بد إذن أن نبعد من ميدان الاختبار علوم الفلاسفة الرياضية ، والفلكية ، والمنطقية ، والطبيعية ، وغيرها ، ولا نستبقى إلا الإلهيات ، وبعضاً من الطبيعيات له مساس بها . نظر الغزالي في هذه المسائل عند الفلاسفة فلم يجد مسلكهم فيها برهانياً ، يؤدي إلى العلم اليقيني ، الذي حدده . واستضعف العقل بإزاء هذه المشاكل ، وقرر عدم طاقته للاستقلال بها .

فإذا كان العقل ثقة في مسائل الرياضيات ، والفلكيات ، والمنطقيات ، فإنه ليس بثقة في مسائل ما وراء الطبيعة .

يتجلى هذا الرأي واضحاً في كتابه « تهافت الفلاسفة » إذ يقول^(١) :

[بل المقصود تعجيزكم عن دعواكم معرفة حقائق الأمور بالبراهين القطعية . فأين من يدعى أن براهين الإلهيات قاطعة كبراهين الهندسيات ؟ !!] .
هذا هو الذي انتهى إليه الغزالي في أمر العقل ، بالنسبة لمسائل ما وراء الطبيعة . ولقد يدهش الإنسان مرة أخرى ، حين يجد الغزالي واقفاً من العقل ، هذا الموقف ، وأن ينحيه عن مسائل ما وراء الطبيعة هذه التنحية .

نعم يدهشه ذلك لأن المعروف عند المسلمين ، أن هناك أموراً لا تعالج — أول ما تعالج — إلا بالعقل ، كوجود الله ، وقدرته على إرسال الرسل ، فإن العقل لو لم يحيط بنفسه هذه الخطوة ، لما أمكنه أن يستمع إلى من يدعى أنه رسول الله . وكالبحث في صحة دعوى النبوة ، فإن هذه مسألة يعول فيها أيضاً على العقل .

نعم إنه بعد قطع العقل هاتين المرحلتين ، يمكنه أن يتقبل مطمئناً كل ما يأتي عن طريق الرسول ، متى وثق من صحة صدوره عنه .

(١) طبع الحلبي ص ١٥٧ ولقد كرر هذا المعنى في مواضع من الكتاب .

يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده^(١) .

[وتقرر بين المسلمين كافة - إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه - أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل ؛ كالعلم بوجود الله ، وبقدرته على إرسال الرسل ، وعلمه بما يوحي به إليهم ، وإرادته لاختصاصهم برسالته ، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة ، وكالتصديق بالرسالة نفسها] .

فهل الغزالي يرى في المسألة رأياً غير ما تقرر بين القوم ؟ !

الظاهر مما سبق - حيث استبعد أن تكون الإلهيات كلها قاطعة كبراهين الهندسيات - أنه يخالفهم . لكننا نجد في نفس الكتاب يقول :

[وإذا^(٢) ظهر عجزكم ، ففي الناس من يذهب إلى أن حقائق الأمور الإلهية لا تتال بنظر العقل ، بل ليس في قوة البشر الاطلاع عليها ، فما إنكاركم على هذه الفرقة^(٣) المعتقدة صدق الرسول بدليل المعجزة ، المقتصرة في قضية العقل على إثبات ذات المرسل ، المحترزة عن النظر في الصفات بنظر العقل ، المتبعة صاحب الشرع فيما أتى به من صفات الله تعالى ، المقتضية إثره في إطلاق العالم والمريد والقادر والحى ، والمنتهية عن إطلاق ما لم يأذن : المعرفة بالعجز عن درك حقيقته] .

وهذا يفيد موافقته للقوم فيما ذهبوا إليه .

وهو بهذه الفقرة : يرسم المنهج الذى يراه قوياً في البحث : فيطلق للعقل العنان بقدر ، ثم يكتمه إذا انتهى إلى الحد الذى لا يكون له فيها وراءه مجال .

وهنا نسأل « أبا حامد » سؤالاً :

السؤال الأول :

إذا كان يرى أن للعقل الحق في البحث عن بعض مسائل الإلهيات - كما يفيد

(١) ص ٧ « رسالة التوحيد » . وبمثل هذا صرح العقائد النسفية ص ٣٦ .

(٢) ص ١٥٧ .

(٣) الأوصاف التي سيذكرها تنطبق على الأشاعرة ، وفي هذا ما يدل على أنه يرى من وراء التشويش على الفلسفة ، فتح المجال لمذهب كلامي معين .

هذا النص — فلماذا حمل على الفلاسفة حملة منكرة ، حين استعملوا العقل في هذه المسائل ؟ !

والسؤال الثاني :

إذا كان « أبو حامد » يرى هذا المنهج صواباً ، فلماذا لم يجد فيه شفاء نفسه . وراح يطلب الحق ، مرة عند التعليمية ، وأخرى عند الصوفية ؟ ! !

الجواب عن الأول : يتضح إذا عرفنا أن الغزالي ألف كتاب التّهافت ، ليسلب من العامة ثقتهم كلية بجماعة المتفلسفة ، بإظهار أنه لم يفهمهم الصواب حين حكموا العقل فيما ليس داخلاً في دائرة اختصاصه ، وأيضاً أخطأهم الصواب حين استعملوا العقل فيما هو من اختصاصه ، فكانت بضاعتهم كلها مزجاة .

هكذا أراد أن يظهرهم الغزالي ، حتى لا يدع متمسكاً لمن يريد أن يأخذ عنهم ، ويتلمذ لهم ، فهو لا يرى الخير للعامة إلا في البعد عن الفلاسفة كلية قال في التّهافت^(١) :

[مقدمة ثالثة :

ليعلم أن المقصود تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة ، فظن أن مسالكهم نقية عن التناقض : ببيان وجوه تهافتهم ، فلذلك أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر ، لا دخول مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً به : بالزمامات المختلفة ، فالزمهم تارة مذهب المعتزلة ، وأخرى مذهب الكرامية ، وطوراً مذهب الواقفية ، ولا أنتهض ذاباً عن مذهب مخصوص ، بل أجعل جميع الفرق إلثماً واحداً عليهم ، فإن سائر الفرق ربما خالفونا في التفصيل ، وهؤلاء يتعرضون لأصول الدين ، فلنتظاهر عليهم ، فعند الشدائد تذهب الأحقاد] .

أما الجواب عن السؤال الثاني : فهو أن هذا المنهج لم يرسمه الغزالي لنفسه ، وإنما رسمه لطائفة لم تسم بأفكارها إلى درجة الاجتهاد المطلق ، بل عولت في بعض ما تدين به على التقليد ، ولكنها بدل أن تقلد صاحب الشرع ، راحت تلتمس

الحق بين تخليط الفلاسفة وتخييلاتهم^(١) ، فالغزالي يرسم لهم هذا المنهج ويقول لهم :
الأولى تقليد صاحب الشرع .

أما هو فليس يجد في هذا المنهج شفاء نفسه ، وكيف والشرع بمقدار ما أفاض
في العمليات ، اقتصد في المسائل النظرية ، رعاية لعقول العامة أن تتخبط في
ما لا تحسنه ، وفيما ليس لها به حاجة ؟ ! !

يقول الغزالي^(٢) :

[وعلى هذا المعراج — يشير إلى المعراج الثاني في بحث النفس وهل هي باقية
أم لا — يدور الناس ، فهو رأس العلوم ، وإذا اضمحل فلا ثابت ، ولذلك لم تبينه
الرسول ، لأن كلام غيرهم بين أن يقبل أو يرد ، ويصدق أو يكذب ، وكلام
الرسول عليهم السلام ليس كذلك ، فإن المسألة في نهاية الغموض ، والأذهان
أكثرها ضعيفة ، فربما لم تفهم مقاصدهم ، فتعرض من قولهم على قولهم ، فلم يوردوا
فيها إلا إشارات ورموزاً] .

ويقول في موضع آخر^(٣) :

[ولكون الصواب في العمل لأكثر الخلق ، استنصاه النبي صلى الله عليه وسلم
تفصيلاً وتأصيلاً ، حتى عَلم الخلق الاستنجاء وكيفيته ، ولما آل الأمر إلى العلوم
النظرية أجمل ولم يفصّل] .

وهذه المسائل النظرية ، هي التي يبحث عنها الغزالي ، ويريد أن يصل فيها
إلى يقين ، فكيف يقنع هو بهذا المنهج الذي يهمل هذه المسائل نهائياً أويكاد ؟ ! !
وإذا كان الشرع قد أجمل فإذن ليس فيه ما يبحث عنه الغزالي ، وإذا كان
منهج الفلاسفة غير صالح ، فليطلب الحق إذن عند فريق ثالث قال :

[ثم^(٤) إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتزييف ما يزيغ منه ،
علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة

(١) أعني في نظر الغزالي في ذلك الوقت .

(٢) ص ٦٣ في «معراج السالكين» .

(٣) ص ٥٢ «ميزان العمل» .

(٤) ص ١٠٧ من المتقد

بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع العضلات] .

وجه الغزالي وجهه شطر التعليمية . وماذا يقول أهل تلك الطريقة ؟ ! يقولون : إن العقل لا يؤمن عليه الغلط ، فلا يصح أخذ حقائق الدين عنه . وهكذا يقول الغزالي . فهم إلى هذا الحد متفقون . عماذا إذن يأخذون قضايا الدين في ثوبها اليقيني ؟ ؟ يأخذونها عن الإمام المعصوم ، الذي تلقى عن الله بواسطة النبي ومن أخذ عن النبي من الأئمة . أحبب بهذا الإمام وبما يأتي عن طريقه !!! ولكن أين ذلك الإمام ؟ .. فتش عنه الغزالي طويلاً فلم يجده ، فعاد أدراجه وكر راجعاً .

بقيت رابعة الفرق التي حصر الغزالي الحق بينها : بقي المتصوفة ، الذين يقولون بالكشف ، والمعاينة ، والاتصال بعالم الملكوت ، والأخذ عنه مباشرة ، والاطلاع على اللوح المحفوظ وما يحتويه من أسرار .

ولكن ما الطريق إلى الكشف والمعاينة ؟ ! الطريق علم وعمل ، قال (١) : [ولما كان العلم أيسر على من العمل ، ابتدأت بتحصيل علومهم ، من مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه الله ، وكتب الحارث الحاسبى ، والمتفرقات المأثورة ، عن الجنيد ، والشبلى ، وأبي يزيد البسطامى : - قدس الله أرواحهم - وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم ، بالتعلم والسماع] .
حصل الغزالي كل هذه العلوم ولكن بقي عليه العمل ، وفي هذا يقول (٢) : [فظهر لى أن أخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أن يعلم (الإنسان) حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما ، وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان
نكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد ، وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن

(١) في المنقذ ص ١٢١ .

(٢) في المنقذ ص ١٢٣ .

يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا .
وعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال ، لا أصحاب أقوال ، وأن ما يمكن تحصيله
بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه ، بالسماع والتعلم ، بل بالذوق
والسلوك] .

وهنا ينبغي أن نحدد معنى العلم الذى حصله الغزالي ؛ ومعنى العلم الذى يسعى
إليه عن طريق المكافحة .

الأول : هو العلم العملى الذى هو العلم بكيفية العمل ، وهو أقل درجة من
العمل ؛ لأنه وسيلة إليه ، والوسيلة لا تكون أشرف من المقصد^(١) .
والثانى : هو العلم النظرى ، كمعرفة أحوال النفس فى المعاد الآخروى ،
وأشباه ذلك .

والمتصوفة يقسمون العلوم إلى علوم معاملة ، وعلوم مكاشفة ، فغاية علوم
المعاملة العمل بمقتضاها ، ومن العمل اشتق اسمها .

وهى تنقسم إلى علوم تتعلق بالأعضاء الظاهرة ، كعلم الفقه ، ويسمى علم
الظاهر ، وإلى علوم تتعلق بالقلب ، لمحو الصفات الرديئة منه ، وغرس الصفات
الحميدة فيه ، وتسمى علم الباطن .

وعلوم المعاملة بقسميها وسيلة إلى العمل الذى هو غايتها ، وأشرف منها ،
والعمل بدوره وسيلة إلى علوم المكاشفة ، التى هى نظرية محضة ، وبها السعادة
القصوى ؛ لأنها تعد المرء لأن يقرب من الذات الأقدس ، قرباً بالمعنى والشرف ،
لا بالمكان والمسافة .

وعلوم المعاملة تهيئ القلب لإفاضة هذه التجليات — أعنى علوم المكاشفة —
من قبل الجواد الذى لا مانع من جهته أصلاً ، وإنما المانع من جهة القابل ، قال
الغزالي^(٢) :

[واتفقوا — يعنى المتصوفة — على أن العلم أشرف من العمل ، وكأن العمل

(١) قال فى « ميزان العمل » ص ٥١ : « ومن العلم العلم العمل ، أعنى ما يعرف به كفيته ،
فإن العلم العملى ليس بأشرف من العمل ، بل هو دونه فهو مراد له » .

(٢) فى ميزان العمل ص ١٨ .

متسم له ، وسائق بالعلم إلى أن يقع موقعه ، ولأجله قال الله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه » .

[والكلم الطيب يرجع إلى العلم عند البحث ؛ فهو الذى يصعد ويقع الموقع ؛ والعمل كالتأديم له ، يرفعه ويحمّله ، وهذا يدل على علو رتبة العلم] .
فوسيلة المعرفة فى نظر المتصوفة تتكون من مرحلتين :

المرحلة الأولى : العلم العملى الذى هو معرفة كيفية العمل .

المرحلة الثانية : نفس العمل ، سواء كان ذلكم العمل عملاً تخليعاً ، كالتجرد من الصفات المذمومة ، أو عمل تحليع كالتحلى بالفضائل المحمودة .

فالغزالي إلى هذا الوقت ، كان قد قطع المرحلة الأولى فقط ؛ إذ كان قد عكف على علم المعاملة فحصله ، كما حدثنا هو عن ذلك ، ولكن بقى عليه المرحلة الثانية ؛ بقى عليه التمسك بأحكام الفقه والأخذ بها عملياً ؛ بحيث لا يفرط فى صغير منها ولا كبير ، ويبقى عليه محو الصفات الرديئة من القلب ، مثل العجب والرياء والحسد وحب الدنيا وحب الجاه والمال والأولاد ؛ ويبقى عليه إحلال الصفات الطيبة ، والفضائل الخلقية ، محلها ، مثل الصبر والقناعة والتوكل .

وقد أجمّل ذلك كله بقوله (١) :

[رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار التلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . وذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه ، والمال ، والمهرب من الشواغل والعلائق] .
وقال فى الإحياء (٢) :

[بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شىء وعدهه] .
وأنى للقلب البشرى أن يتجرد من كل هذه الأمور ؟ ! اللهم إنه مطلب عسير قلّ من يطيقه من الرجال ؛ حتى الغزالي نفسه . فإن الغزالي إلى هذه اللحظة التى نؤرخ له فيها ، إذا كان قد امتاز عن الناس بوفرة فى العلم ، وبغزوف عن التقليد ، وعن الجحوى فى أعقاب الغير ، فإنه من حيث المسائل الدنيوية إنسان عادى ككل

(١) فى المنقذ ص ١٢٥ .

(٢) ج ٨ ص ٣٣ طبع لجنة نشر الثقافة .

إنسان لم يفرغ نفسه منها ، إذ يتصباه المجد . ويأسره حب الشهرة ، ويغريه المال ، ويفتته حب الرياسة .

استمع إليه يتحدث عن نفسه ، حينما أراد أن يطبق عليها هذا المنهاج . يقول (١) :

[ثم لاحظت أحوالى ، فإذا أنا منغمس فى العائق ؛ وقد أهدت بى من الجوانب ، ولاحظت أعمالى - وأحسنها التدريس والتعليم - فإذا أنا مقبل على عوم غير مهمة ، ولا نافعة فى طريق الآخرة ، ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس ، فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعها ومحركها طاب البلاء وانتشار الصيت] .

فكيف يتخلص الغزالي من كل هذه العلائق التى أهدت به من كل الجوانب ؟ ! وكيف يترك منصبه فى التعليم وهو أكبر مركز تشرف إليه النفس فى ذلك الزمان ؟ ! وكيف يترك المال وهو كثير (٢) وغير ؟ ! وكيف يترك الوطن وقد جبلت النفوس على حبه والتعلق به ؟ ! وكيف يترك الأولاد ؟ ! وفيهم يقول الشاعر :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

وكيف يترك بغداد ونعيمها ؟ ! وقد وصفها الدكتور زويمر أوصافاً شيقة ثم عقب بقوله (٣) :

[وما تقدم يتضح لنا كيف تنعم الغزالي على مائدة نظام الملك وغيره ، من أصحاب الثراء ، وأن الجوع لم يدخل أسوار بغداد] .

وكيف يترك المدرسة النظامية وقد كان من كبار مدرسيها (٤) ؟ ! وهى مبنية على الشاطئ الشرقى لنهر دجلة ، بجوار الميناء والسوق .

لا شك أن الأمر خطير ، والموقف محير ، وندع الغزالي يعبر لنا عن شعوره إزاء هذه الورطة ، فإنها حال نفسية دقيقة ، لا يحسن وصفها ، إلا من

(١) المنقذ ص ١٢٦ .

(٢) حدث هو عن نفسه أنه لما عزم على الخروج ، احتجز لنفسه ولأولاده ما يمكن ، ثم وجد لديه باقياً تصلق به .

(٣) ص ٦٨ من كتابه عن الغزالي .

(٤) زويمر ص ٦٨ .

ذاقها وأحسها قال الغزالي (١) :

[فلم أزل أتفكر في الأمر مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار ، أصم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال ، يوماً ، وأحل العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً ، وأؤخر فيه أخرى ، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة ، إلا ويحمل عليها جند الشهوة فيفتريها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل الرحيل ! فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل ، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتي تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتي تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، ينجزم العزم على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فإنها سريعة الزوال ، فإن أنت أذعنت لها ، وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنقيص ، والأمن والسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليه نفسك ، ولا تنيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة ، قريباً من ستة أشهر ، وألها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ أقفل الله على لساني ، حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً ، تطيبياً لقلوب المختلفة إلى ، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها ألبتة ، حتى أورثت هذه العقدة في اللسان ، حزنًا في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ، ومراة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لي ثريد ، ولا تنهضم لي لقمة ، وتعدى إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم في العلاج ، وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج .

ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت إلى الله التجاء المضطر ، الذي لا حيلة له ، فأجانبني الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهّل على قلبي الإعراض عن الجاه ، والمال ، والأولاد ، والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج

إلى مكة وأنا أريد في نفسى سفر الشام ، حذار أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي في المقام بالشام ؛ فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم ألا أعاودها أبداً ؛ واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم ، ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، وظن من بُعد عن العراق ، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاية ؛ وأما من قرب من الولاية ، وكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي ، والانكباب على ، وإعراضهم عنهم ، وعن الالتفات إلى قوهم ، فيقولون هذا أمر سماوى ، وليس له سبب إلا عين أصابت الإسلام وزمرة العلم ، ففارقت بغداد] .

أخيراً وبعد لأى - كما قص علينا الغزالي نفسه - استطاع أن يتحرر من خداع الدنيا وتلبساتها ، وأن يحمل نفسه على الأخذ بطريق الصوفية ، عله يجد فيه برد اليقين وطمأنينة المعرفة .

ويرى الصوفية أيضاً من تنمة منهجهم^(١) : [أن تخلو بنفسك في زاوية ، تقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب ، وتجلس فارغ القلب ، مجموع الهم ، مقبلاً بذكرك على الله .

وذلك في أول الأمر ، بأن تواظب باللسان على ذكر الله تعالى ، فلا تزال تقول : « الله . الله » مع حضور القلب وإدراكه ، إلى أن تنهى إلى حالة : لو تركت تحريك اللسان ، لرأيت كأن الكلمة جارية على لسانك ! لكثرة اعتياده ، ثم تصير مواظباً عليه إلى أن لا يبقى في قلبك إلا معنى اللفظ ، ولا يخطر ببالك حروف اللفظ وهيئات الكلمة ؛ بل يبقى المعنى المجرد حاضرّاً في قلبك على اللزوم والدوام .

ولك اختيار إلى هذا الحد فقط ، ولا اختيار لك بعده إلا في الاستدامة لدفع الوسوس الصارفة ، ثم ينقطع اختيارك فلا يبقى لك إلا انتظار لما يظهر من فتوح ظهر مثله للأولياء ، وهو بعض ما يظهر للأنبياء . قد يكون أمراً كالبرق الخاطف ، لا يثبت ثم يعود ؛ وقد يتأخر ؛ فإن عاد فقد يثبت ؛ وقد يكون مختلطاً .

وإن يثبت ؛ فقد لا يطول ؛ وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق ؛ وقد لا يقتصر على فن واحد . ومنازل أولياء الله فيه لا تحصى ، لتفاوت خلقهم وأخلاقهم .
فهذا منهج الصوفية . وقد رد الأمر فيه إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ، ثم استعداد وانتظار فقط] .

هذا هو المنهج الذى غادر الغزالي بغداد ، وغادر كل مظاهر الأبهة والترف من أجله ، علّه يظفر من ورائه بما يتحرق إليه شوقاً ، من إدراك الحقيقة اليقينية .

٥

في الشام وبلاد الحجاز

ترك الغزالي بغداد هاتماً على وجهه في إثر الحقيقة ، فهل أخذ أولاده معه في هذه الرحلة الشاقة ؟ !

يقول الأستاذ محمد رضا^(١) .

[فارق الغزالي بغداد وفرق^(٢) ما كان معه من المال ؛ ولم يدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال] .

ويقول الدكتور زويمر^(٣) :

« وترك كل ما يملك سوى ما يكفيه وعائلته من القوت » .

وهذه النصوص تنفيذ بظاهرها أنه أخذ أسرته معه ، لكن هذا غير مستقيم في نظري لأمرين :

الأول : قول الغزالي نفسه بعد أن طوف في الآفاق ما شاء الله أن يطوف :

[ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن] .

فهذه العبارة تنفيذ أن الأطفال لم يكونوا معه .

الثاني : أن اصطحاب الأولاد يتنافى مع المنهج الذى رسمه الصوفية ؛ والذى

(١) في كتابه عن الغزالي ص ١٣ .

(٢) وهذا يفيد أنه كان لديه مال مدخر .

(٣) في كتابه ص ٦٩ .

أخذ « الغزالي » نفسه بتطبيقه بمخالفه ؛ وهو ينص على التجرد من علائق المال ، والأهل ، والأولاد ، والوطن .

ومهما يكن من شيء فقد خرج « الغزالي » من « بغداد » أواخر سنة ٤٨٨ هـ ذاهباً إلى الشام ؛ حيث يستطيع الخلوة ، ليطبق منهج الصوفية العملي ، قال (١) :

[ثم دخلت الشام ، وأقمت بها قريباً من سنتين ؛ لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والجهادة ، اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية . فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق ؛ أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي (٢) . ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأقفل بابها على نفسي .

ثم تحركت في داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة

(١) في المنقذ ص ١٢٩ .

(٢) وقد اعتور خلوته نشاط وفنور ، لأن إعطاء الدروس في جوامع دمشق وبيت المقدس والاسكندرية خروج على هذه الخلوة بمض الشيء ، واعتزاه زيارة الأندلس وسلطان القرب ، ربما كان خروجاً على هذه العزلة كل الشيء .

ويحدثنا صاحب « عقود الجوهر » عن مجلس الغزالي ، وعن حالته النفيسة أثناء هذه العزلة فيقول : [ذكر علاء الدين الصيرفي في كتابه « زاد السالكين » أن القاضي أبا بكر بن العربي قال : رأيت الإمام الغزالي في البرية ، وعليه مرقمة ؛ وعلى عاتقه ركوة ، وقد كنت رأيت به بغداد ، يحضر درسه أربعمائة عمامة ، من أكابر الناس وأفاضلهم ، يأخذون عنه العلم . قال : فدنوت منه و سلمت عليه ، وقلت : يا إمام أليس تدريس العلم ببغداد خيراً لك من هذا ؟ ! . قال : فنظر إلى شئراً وقال :

« لما طلع بدر السعادة ، في تلك الإرادة ، وجنحت شمس الوصال ، في مغارب الوصول .

تركت هوى ليل وسعدى بمعزل	وعدت إلى مصحوب أول منزل
وزادت بي الأشواق مهلاً فهذه	منازل من تهوى رويدك فأنزل
غزلت لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد	لغزلي ناصحاً فكسرت مغزلي]

هذا وفي نفسي من تمثل الغزالي بالبيت الثالث شيء ، فإن الغزالي - كما حدثنا - لم يترك بغداد لعدم وجود تلامذة يفهمون نظرياته بل تركها ليطبق المنهج الصوفي العملي على نفسه .

ثم إنه لم يكن له إلى هذه اللحظة نظريات هامة ؛ لأنه لا يزال شاكاً ، وكل ما كان يلقى من دروس ، أو يودعه مؤلفات ، إنما هي - في أكثرها - فئات مرددة ، لعلما الكلام وغيرهم كما سبق القول . على أنه ليس يبعد أن يكون ذلك من البواعث أيضاً .

وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه فسرت إلى الحجاز .

ثم جذبتني الحمم ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه ، فأثرت العزلة به أيضاً ، حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر ، وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة ، لكنني مع ذلك لا أقطع طمعي فيها فتدفعني عنها العوائق وأعود إليها .
ودمت على ذلك مقدار عشر سنين^(١) .

يبين لنا الغزالي أنه أقام مختلياً بالشام قريباً من سنتين ؛ ولكنه لم يبين لنا كم أقام في بيت المقدس ، ولا كم أقام في الحجاز ، ولا كم أقام في طوس بعد العودة إليها ، ولكنه أجمل كل ذلك وقدره بعشر سنوات ، غير أنه في موضع آخر^(٢) يقدر هذه المدة بإحدى عشرة سنة ، فلعله هنا قدرها على التقريب ، وهناك لما استعمل الأرقام قدرها تقديراً مضبوطاً .

وفي هذه المدة - مدة الخلوة والعزلة - تجلت للغزالي الحقيقة التي كان يتلهف شوقاً إليها . فهدأت نفسه ، وذهب قلقه ، وأدرك أن طريق الصوفية هو الطريق الحق ، فلن يعود الغزالي بعد ذلك حائراً ؛ فقد ظفر بما كان يبتغي ، ولن يعود باحثاً عن منهج لليقين بعد ؛ فقد وجد في الصوفية^(٣) [أنهم هم السالكون لطريق الله

(١) لم يشر الغزالي في كتبه إلى دخوله مصر ويعمل الدكتور زويمر ذلك [بأن علماء الأزهر في ذلك الوقت ، لم يحسنوا لقاءه ، مع شهرة صيته في كل العالم الإسلامي ، ومع وجود تلاميذه له في بغداد وفسابور من كانوا أصلاً في مصر وشمال أفريقيا : ظنا منهم أنه لا علم إلا في الأزهر ، ولا عالم إلا من الأزهر ، وأن كل من تعلم في غير الأزهر لا يكون عالماً حقاً .
وقد كانت القاهرة في وقت زيارة الغزالي لها ، مركز المدينة العربية ، وكانت مزدهرة بكل أمجاد الدولة الفاطمية] .

وإني لا أوافق الدكتور زويمر على ما ذهب إليه ، من تحليل شبه الجفوة التي وقعت بين الغزالي وعلماء الأزهر ، فلربما كان اختلاف المنهج هو السبب لا عدم اعتداد الأزهريين بغيرهم .
فا دامت مصر كانت مزدهرة بأعجاز الدولة الفاطمية إذ ذلك ، لا بد أن يكون المنهج الرسمي فيها هو المنهج الشيعي . ومعروف أن الغزالي كان سنياً وهذا كاف لحديث شبه الجفوة التي وقعت .

(٢) ص ١٥٣ المنقذ .

(٣) ص ١٤١ المنقذ .

تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ؛ وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ؛ وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به [.

وهكذا بعد أن طوف الغزالي في آفاق المعرفة ما شاء الله أن يطوف ، لم يرقه سرى التصوف^(١) .

وقد كان الغزالي في هذا التطواف مدفوعاً بعامل خاص ، هو عامل الدين ، فهو لم يحمل نفسه على الدخول في هذه المفاوز الضيقة ، والشعاب الملتوية ، إلا من أجل الدين .

قال « ديبور »^(٢) :

[ولم يكن الذى حمّله على دراستها — يعنى الفلسفة — مجرد شغف بالعلم :

(١) وهل تقرر الضرورة العقلية ، التى كان يحتكم إليها النزالي في القبول والرفض ، طريقة المتصوفة هذه؟! ، نعم : لأن الإنسان في النوم حين تتمتعل حواسه ، وتخلو نفسه إلى ذاتها ، تطلع على أمور تحصل في المستقبل ، كما ظهرت لها في النوم . فإذا جاز للنفس أن تشرف على عالم الملكوت حين غفلة الحواس ، فإن هنالك أناساً يملون حواسهم تمام الإهمال في حال اليقظة ، فلا مانع في تلك الحال من أن تطلع نفوسهم على عالم الملكوت .

ولأن الأنبياء يخبرون عن أمور فتحصل في المستقبل كما أخبروا تماماً ، وليس النبي إلا إنساناً كوشف بحقائق الغيب ، وكلف مع ذلك هداية الناس وإرشادهم .

فلا يستحيل أن يكون بين الخلق إنسان مكاشف بحقائق الأمور ، ولا يكلف هداية الخلق وإرشادهم . فن صدق بالرؤى الصحيحة ، والنبوات ، لم يسهه إلا أن يصدق بأن طريق الصوفية في المعرفة طريق لا تأبأها الضرورة العقلية .

وإلى هنا انتهت الضرورة العقلية من أداء رسالتها ، وهى هداية النزالي إلى طريق مأمونة للكشف عن الحقيقة ، فأسلم النزالي نفسه إلى هذه الطريق ، واستقى منها ما شاء من المعارف .

غير أن الضرورة العقلية ، قد لعبت مع النزالي دوراً آخر هو شرح مكاشفاته وإلهاماته .

(٢) تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٧٦ .

بل كان قلبه يتطلع إلى مخرج من الشكوك التي كان يثيرها عقله ، ولم يكن يحاول الوصول إلى تعليل ظواهر الكون . ولا كان يرمى إلى تسديد تفكيره ، بل كان يبغى طمأنينة القلب وتدوق الحقيقة العليا [.

وباسم الدين قبل الغزالي من العلوم ما قبل ، وباسمه رد من العلوم ما رد ، فالرياضة علم وثيق الأدلة لا مرية فيه ، ولا يصطدم في شيء مع أوليات الفكر ، ولكن الغزالي يخشى على من يقرؤه أن يمنح كل علوم الفلاسفة هذه الثقة . وفي الحق أن الغزالي قرأ وألف ، وأفرط في القراءة والتأليف ، من أجل الدين ، وشك وأمعن في شكه وباعثه على ذلك هو الدين ، لذلك كان مؤلفاته على كثرتها طابع واحد يشملها ، هو وحدة الموضوع ، قال صاحباً مقدمة المنقذ^(١) :

[وبلغت مؤلفاته كلها عدداً ضخماً ؛ وتدور مباحثها كلها حول الفكرة الدينية ، التي شغلت حياته . وهذا ما يجعل لها ميزة نادرة هي وحدة الموضوع ، ووضوح الفكرة الأساسية ، وقوة التعبير في الدفاع عن نظرياته .

وفي الحقيقة فقد كان للغزالي أسلوب تتدفق منه الحياة ، بعيد عن الصناعة اللفظية ، غاية في الصراحة والوضوح ، يشعر القارئ في كل جملة ، بأن هناك قلباً يخفق ، وفكراً يجول ، وإرادة تملئ [هـ

ليس في وسعنا أن نستبين بالظروف الأولى التي أحاطت بالغزالي ، فالأب المتصوف ، والوصي المتصوف ، والعم المتصوف ، والأخ المتصوف ، والأساتذة المتصوفون ، و « نظام الملك » المتصوف أو صديق المتصوفة ، والعصر المتصوف كله ، كما حكى الدكتور زويمر^(٢) . وأخيراً نفس الغزالي المشرقة ، ذات العاطفة المتدفقة ، كل أولئك قد طبع الغزالي بطابع خاص ، طابع التدين والحبيطة ليوم الجزاء.

قد يكون الغزالي نفسه قد غفل^(٣) عن ذلك الطابع أول الأمر ، ولم يدركه تمام الإدراك ، فإن الحالات النفسية في أول أمرها تخفى حتى على أصحابها . والذي يظهر لي أن الأمر مع الغزالي كان كذلك ، بدليل أن الهوى قد لعب به حيناً ، وأن

(١) ص ٨٨ .

(٢) في كتابه عن الغزالي ص ٧٦ .

الشهوة والمجد الزائف قد تصبياه فجرى في تيارهما أحياناً ؛ كما حدثت هو عن نفسه . ولكن لم تلبث تلك العوامل الأولى الدفينة في نفسه ، الكمينية في قرارة وجدانه ، أن ظهرت بعد أن كانت قد استكملت قوتها ، فنضت عنه هذه المظاهر المستعارة ، وبغضت إليه هذا المجد الزائف ، فسفرت نفسه الحقيقية ، رافعة علم الصوفية عالياً ، بعد أن كانت قد أعدت له من وسائل الدفاع ما كفل له الخلود .

يقول الأستاذ ماكدونالد^(١) :

[كانت الصوفية موجودة في الإسلام قبل الغزالي ، إلا أنها كان ينظر إليها كأنها شيء مخالف للشرع ، مزر بمقام من يتبعه . ولكن الغزالي لما ظهر في ميدان الحياة ، عزز الصوفية في تعاليمه أيما تعزيز ، وطبقها على الشرع ، وطبق الشرع عليها ، وزاد في تكريمها ، حتى صارت الصوفية ذات المكانة العليا بين عموم السنين المسلمين ، بل بين جميع الفرق الإسلامية منذ ذلك الحين] .

انكشف للغزالي ولا بد أثناء تلك الخلوة من المعارف ما لم تسعفه به جميع وسائل المعرفة الأخرى قال^(٢) :

[وانكشف لي أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها]^(٣) .

(١) نقلا عن كتاب الدكتور زويمر ص ١٢٨ .

(٢) المنقذ ص ١٣٠ .

(٣) ما هذا الذي انكشف للغزالي ؟ ! وما هي عل وجه التحديد المسائل التي كان يشك فيها الغزالي ؟ ! والتي من أجلها جاب الآفاق طالبا الحقيقة باحثاً عنها ؟ !
ويجب من أول الأمر أن نميل بهذا السؤال بعيداً عن الفترة التي شك فيها الغزالي في العقل والحواس جميعاً ، فإنه في هذه الفترة ، ما كان يؤمن بشيء أصلاً ، مثله مثل السوفسطائي سواء بسواء . وإنما نقصد بالسؤال ، ما قبل هذه الفترة وما بعدها ، إلى أن تصوف .
فهنا إذن فترتان :

١- فترة ما قبل نوبة الشك العنيف .

٢- وفترة بعدها إلى أن تصوف .

أما الفترة الأولى فقد كان الغزالي فيها لا يشك في موازين الحقيقة إذ كان لديه منها إذ ذاك العقل والحواس والقضايا المشهورة وظواهر النصوص .

ولإنما كان يشك في أي الفرق المختلفة على حق ؟ !

وأما الفترة الثانية ، فقد كان شكه أيضاً بعيداً عن موازين الحقيقة ، ولكن لم يكن لديه منها سوى الضرورة العقلية .

= وإنما كان يشك أيضاً في أي هذه الفرق على حق ؟ !
 والعقل وما معه في الفترة الأولى ، والعقل وحده في الفترة الثانية ، كاف - على مذهب الغزالي نفسه -
 لإثبات ذات الإله ، وإثبات صدق مدعى الرسالة . وعن طريق صاحب الرسالة يؤخذ الإيمان باليوم الآخر .
 وهذه هي أصول الإيمان . وقد حدثنا الغزالي نفسه أنه في أثناء تفتيشه عن صنفي العلوم العقلية والشريعة ،
 حصل له علم يقيني ، بدلائل لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها ، بالله ، وبالنبوة ، واليوم الآخر .
 فهل اليقين بهذه المسائل ، في هاتين الفترتين لم يمتوره شيء أصلاً من الشك ؟ ! أم كان يدب إليه
 ديبه أحياناً ؟ !

هذا ما لم أجد حوله نصاً ، ولا شبه نص ، لا من الغزالي ، ولا من كتباوع الغزالي .
 وإنما الذي أعرفه ، أن بين المسائل التي شغلت بال الغزالي طويلاً ، والتي من أجلها شك وأمعن في
 شكه ، مسألة النفس : تجردها ، وجوهريتها ، وقدمها وحدثها ، وبقائها ، وفنائها .
 هذه المسألة أعرف أنها من أهم - إن لم تكن أهم - المسائل التي شك فيها الغزالي ، لأنه حدثنا عن
 هذه المسألة في كتابه « معراج السالكين » فقال :

[إنها أس العلوم ، وفتح معرفة الله ، وطريق معرفة العالم ، وإنها المسألة التي لها يعمل العاملون ،
 ويجهد المجتهدون ، وإنها إذا ثبت بقاؤها ، أمكن تصديق الأنبياء في كل ما أتوا به ، مما يتعلق باليوم
 الآخر ، من ثواب وعقاب ، وسؤال وحساب ، وبعث ونشور . . إلخ .

وأما إذا لم يثبت بقاؤها ، انهلمت النبوات ، وبطل كل ما أتت به ، من حديث عن أمور الآخرة .
 هذه المسألة التي هي بهذه المثابة ، يرى الغزالي - كما حدثنا سابقاً - أن الشرع لم يخض فيها ، لكونها
 في غاية الغموض ، والأذهان في أكثرها ضعيفة . ولذلك لما سئل عنها الرسول كان الجواب « قل الروح من
 أمر ربى » وأمسك .

ثم إن الفرق المختلفة قد ذهبت في أمر النفس مذاهب شتى ، فمنهم قائل بقدمها ، ومنهم قائل بحدثها ،
 ومنهم قائل ببقائها ، ومنهم قائل بفنائها ، ومنهم قائل بتجردها ، ومنهم قائل بجسديتها ، ومنهم قائل بأنها
 جوهر فرد .

وما دامت المسألة بهذه المثابة من الأهمية في نظر الغزالي ، وما دام الشرع قد أمسك عن القول فيها ،
 وما دامت الفرق لم تهتد بشأنها إلى رأى ، تجمع عليه وتعطيه صفة اليقين ، فلا بد أن يضعها الغزالي ،
 في الموضوع الذي تستحقه من العناية ، ولا بد أن يبحثها في هدوء وتؤدة ، ولا بد أن يطرح كل الآراء التي
 قيلت حولها ، حتى يفرغ ذهنه للرأى الحق فيها .

فمسألة النفس كانت إذن ولا بد من المسائل التي شك فيها الغزالي .
 لكنني أعود فأقول : ما دامت النفس أساساً لليقين باليوم الآخر ، وما دام الغزالي قد شك فيها ،
 فلا بد أن ينجر شكه إلى اليوم الآخر .

وأيضاً ما دام قد شك في اليوم الآخر ، فلا بد أن يكون قد استقى الحكم بصدق الأنبياء ، إلى أن
 يثبت لديه أساس التصديق باليوم الآخر ، إذ لا يعقل أن يكون شاكاً في اليوم الآخر ، وصدقاً بالنبى ،
 الذى يخبر باليوم الآخر .

= وعلى هذا يكون الغزالي قد شك في الفترتين اللتين نتحدث عنهما ، في النبوة واليوم الآخر .

= هذا ما يؤدي إليه الاستنتاج ، وإن لم يكن لدينا بإزاء ذلك نص .
 كذلك لا بد أن تكون مسائل في الإلهيات قد امتد إليها شك النزالي ، كسألة زيادة الصفات وعدم زيادتها . وسألة قدرة الإله ، وأنها هل تتغلغل في الكون كله جليلة وحقيقية ؟ ! أم يقف أثرها عندحل العقل الأول ، أو الصادر الأول على الإطلاق ، وعن هذا العقل صدر العالم وتسلسل . وكسألة حياة السموات ، وأنها كائنات حية ، أم جهادات ؟ . إلى غير ذلك من مسائل أخرى نظرية .
 لأن النزالي يحدثنا أن الشرع بمقدار ما أفاض في العمليات حتى علم الاستنجاه وكيفيته ، أمسك عن الخوض في النظريات ، لأن الأذهان أكثرها ضعيفة ، وهذه النظريات هي التي عنها يفتش النزالي .
 والنزالي رغم ما عانى من الشك ، يعتبره الوسيلة الضرورية لتحصيل العلم الصحيح ، وفي ذلك يقول في المتخذ من الضلال :

[والمقصود من هذه الحكايات، أن يعمل كالمجد في الطلب ، حتى ينتهي إلى طلب ما لا يطلب ، فإن الأوليات ليست مطلوبة ، بل هي حاضرة ، والحاضر إذا طلب فقد واخترى ، ومن طلب ما لا يطلب فلا يتم بالتقصير في طلب ما يطلب] .
 ويقول في ميزان العمل :

[فجانبا الالتفات إلى المذاهب ، واطلب الحق بطريق النظر ، لتكون صاحب مذهب ، ولا تكن في صورة أعمى ، تطلب قائداً يرشدك إلى الطريق ، وحواليك ألف مثل قائدك ، ينادون عليك بأنه أهلكك وأضلك عن سواء السبيل ، وستعلم في عاقبة أمرك ظلم قائدك فلا خلاص إلا في الاستقلال .
 خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة البدر ما يفتيك عن زحل
 ولو لم يكن في مجارى هذه الكلمات ، إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث ، لتتدب للطلب ، فتأهيك به نفعاً ، إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى في العمى والضلال] .
 ويقول في معراج السالكين :

[وأعلم يا أخي ، أنك متى كنت ذاهباً إلى تعرف الحق بالرجال ، من غير أن تتكل على بصيرتك ، فقد ضل سعيك ، فإن العالم من الرجال ، إنما هو كالشمس أو كالسراج : يعطى الضوء . ثم انظر ببصيرتك فإن كنت أعمى فا يغنى عنك السراج والشمس . فن عول على التقليد هلك هلاكاً مطلقاً] .
 بل إنه ليقول في أعظم كتاب ألفه ليناصر به مذهب الأشاعرة وهو « الاقتصاد في الاعتقاد » :
 [إن إقدام الخلق وإحجامهم في أقوالهم وعقائدهم وأفعالهم تابع للأوهام .
 وأما أتباع العقل الصرف ، فلا يقوى عليه إلا أولياء الله تعالى ، الذين أراهم الحق حقاً ، وقوامه على اتباعه .

وإن أردت أن تجرب هذا في الاعتقادات ، فأورد على فهم العايم المعتزلي مسألة معقولة ، فيسارع إلى قبولها ، فلوقلت له : إنه مذهب الأشعري ، رضئ الله عنه ، لنفروا متنع عن القول ، وانقلب مكذباً بما هو مصدق به ، مهما كان سبي الظن بالأشعري ، أو كان قبيح ذلك في نفسه منذ الصبا .
 وكذا تقرر أمراً معقولاً عند العايم الأشعري ، ثم تقول له : إن هذا قول المعتزلي فينفر عن قبوله ، والتصديق به ويعود إلى التكذيب .

في نيسابور ثانياً

لقد مرّ بنا في نص المنقذ السابق ، أن دعوات الأطفال جذبت الغزالي إلى طوس ، بعد أن كان أبعد الخلق من الرجوع إليها . ومرّ بنا أنه وهو في طوس كان يتابع خلوته ، وإن كانت تحول دون اتصالها شواغل .

بينما هو كذلك إذ رأى أن الفساد قد استشرى ، وأن الانحراف كاد يودي بالعقائد ، فحدثته نفسه بالخروج عن العزلة ، ودعوة الخلق إلى الحق ولكنه لم يلبث أن رأى أن ذلك [لا^(١)] يتم إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر ؛ فترخصت فيما بينى وبين الله بالاستمرار على العزلة ؛ تعللاً عن إظهار الحق بالحجة . فقدّر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من الخارج ؛ فأمر أمر إلزام بالهوض إلى « نيسابور » لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الأمر حدّاً كاد ينهى - لو أصررت على الخلاف - إلى حد الوحشة ، فخطر لى أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي أن يكون باعثك على طلب العزلة الكسل ، والاستراحة ، وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق] .

ذهب الغزالي إلى نيسابور^(٢) ليدرس بمدرستها . وللمرة الثانية يدرس الغزالي بمدرسة نيسابور : المرة الأولى في حياة إمام الحرمين ، وهذه هي المرة الثانية ؛ ولكن شتان ما بين المرتين ، قال^(٣) :

= وليست أقول هذا طبع العوام ، بل طبع أكثر من رأيت من المتوسمين باسم العلم ، فإنهم لم يقارقوا العوام في أصل الاعتقاد ، بل أضافوا إلى تقليد الذهب ، تقليد الدليل . فهم في نظرهم لا يطلبون الحق ، بل يطلبون طريق الخيلة في نصرة ما اعتقدوه حقاً بالصاع والتقليد ، فإن صادقوا في نظرهم ما يؤكد اعتقادهم قالوا : لقد ظفرنا بالدليل ، وإن ظهر لهم ما يضعف مذهبهم قالوا : قد عرضت لنا شبهة .

فيضعون الاعتقاد المتكلف بالتقليد أصلاً ، ويلقبون بالشبهة كل ما يخالفه ، وبالدليل كل ما يوافقه . وإنما الحق ضده ، وهو ألا يعتد شيئاً أصلاً ، وينظر إلى الدليل ، ويسمى مقتضاه حقاً ، وتقيضه باطلاً] .

(١) ص ١٥٣ من المنقذ .

(٢) ولسنا نعلم عام ذهابه إليها ، كما لا نعلم عام رجوعه منها .

(٣) ص ١٥٤ من المنقذ .

[وأنا أعلم أنى وإن رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت ؛ فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذى به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولى وعملى ؛ وكان ذلك قصدى ونيتى .

وأما الآن فأدعو إلى العلم الذى به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه . هذا هو الآن نيتى وقصدى وأمنيتى ، يعلم الله ذلك منى] :

مكث الغزالي في «نيسابور» ماشاء الله أن يمكث ، ثم عاد إلى «طوس» ولم يبرحها بعد ، وبنى بجوار داره مدرسة للفقهاء ، ومأوى للصوفية . ثم توفى في ١٤ جمادى الثانية سنة ٥٠٥ هـ . بحضرة شقيقه أحمد . ثم دفن شرق الحصن بمقبرة الطابران ، قريباً من قبر الشاعر الفردوسى الشهير .
توفى الغزالي ولسان حاله يقول^(١) :

[إننى أضع روحى بين يلى الله ؛ وليدفن جسدى فى طى الخفاء ؛ وأما اسمى فإنى باعث به إلى الأجيال المقبلة وإلى سائر الأمم] .

٧

خلاصة

ويمكن تقسيم حياة الغزالي إلى ثلاث فترات :

١ - الفترة التى سبقت شكه .

٢ - فترة الشك بقسميه .

٣ - فترة الاهتداء والطمأنينة .

أما الفترة التى سبقت شكه ، فيمكن التغاضى عنها كفترة إنتاج عقلى ؛ لأن الغزالي فى هذه الفترة كان متعلماً ، لم يبلغ درجة النضوج الفكرى ، حتى ينتج إنتاجاً عقلياً مستقلاً ، وقد حدثنا الغزالي نفسه : أن الشك قد أتاه مبكراً على قرب عهد بسن الصبا .

وأما الفترة الثانية ، فترة الشك ، فقد كانت طويلة المدى ؛ لأنها ابتدأت منذ سن الصبا ، إلى أن تصوف واهتدى ، وهى فترة طويلة فى حياة الغزالي .

(١) كلمة فرنسيس بيكون الفيلسوف الإنجليزى المتوفى سنة ١٦٢٦ م .

حدثنا الغزالي في المنقذ من الضلال ؛ أنه في هذه الفترة ، ألفت في علم الكلام ، وألفت في نقد الفلسفة ، وألفت في نقد مذهب التعليم ، وكان يلقي دروساً في مدرسة بغداد ، في علوم الشريعة .

وبما يثير الدهشة أن شاكاً في الحقيقة يصدر تأليف إيجابية حول الحقيقة ؛ ويدرس حول الحقيقة تديراً إيجابياً : وأعنى بالتأليف والتدريس الإيجابيين التحرير والشرح ، دون النقد والتزييف .

اللهم إلا أن يكون مردداً لآراء غيره ، وشارحاً لها ، دون أن يعتقد لها . نعم ليس من الغريب أن يصدر عن الشاك تأليف وتدريس سلبيان : وأعنى بالتأليف والتدريس السلبيين النقد والتفنيد ؛ لأن الشاك باحث ، لم تُسلم لديه أدلة الدعاوى ؛ إذ قامت لديه حولها شبه ، فهو إذا سطر لنا تلك الشبهة في كتب ، أو ألقاها في دروس ، كان مستجيباً لداعى شكه ، وكان منطقياً مع نفسه .

لذلك لم يكن غريباً من الغزالي أن ينقد الفلسفة ومذهب التعليم ، لكني مع ذلك ألاحظ على الغزالي في نقده للفلسفة أنه غير مستجيب لداعى شكه ؛ لأن قارئ كتاب التفاهت ، يلاحظ أن صاحبه لا يزال عملية الهدم فحسب ، بل هو يهدم ليفسح المجال لشيء معه ، لا يقوم إلا على انقراض ما يهدم . استمع إليه يقول^(١) :

[ونحن لم نلتزم في هذا الكتاب إلا تكذيب مذهبهم . . .
وأما إثبات المذهب الحق فنسصف فيه كتاباً بعد الفراغ من هذا ، إن ساعد التوفيق إن شاء الله ، نسميه « قواعد العقائد » ونعنى فيه بالإثبات كما اعتنينا في هذا بالهدم] .

وظاهر ذلك أن الغزالي يهدم الفلسفة لأنها تناقض مذهباً كميماً معيناً يعتقد صدقه ، لا كما فهم الدكتور عبد الهادي أبو ريده ، في تعليقه على كتاب « ديور » من أن الغزالي كان يهدم الفلسفة ليقم على أنقاضها مذهب التصوف ؛ لأن الغزالي في تلك الحال لم يك قد ثبت لديه صحة منهج الصوفية بعد ، ولأن هذا يتنافى مع الشك الذي كان حاله في تلك الفترة .

غير أن الغزالي قد تكفل بحل هذا الإشكال ؛ فحدثنا أن المذهب ينقسم إلى أقسام ثلاثة :

الأول : مذهب يتعصب له المرء ؛ لأنه مذهب البلد الذي نشأ فيه ؛ ومذهب أهله ، وهو إما مذهب الأشعري أو المعتزلي . . . إلخ .

الثاني : مذهب المسترشدين ، وهو يختلف باختلاف حالم ، فلو كان المسترشد بليداً ، لا يستطيع إدراك المجردات فلا يقال له : الإله مجرد ، لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه ، ولو كان ذكياً ، ذكرت له حقيقة الأمر .

الثالث : المذهب الذي يعتقد المرء في خاصة نفسه ، يلتقي الله عليه ، ولا يبوح به إلا لمن اتصف بأمور تأتي الإشارة إليها .

فالغزالي في حال شكه ، لعله إنما كان يشك في المذهب بالمعنى الثالث ، لأنه كان يبحث عن الحقيقة ، التي يلتقي الله عليها ، ويراهما الحق الصراح ، ولا يلزم من الشك في المذهب بهذا المعنى ، الشك في المذهب الرسمي الذي يتعصب له المرء . فالغزالي في دروسه وتآليفه الإيجابية ، والسلبية التي تتضمن الإيجاب « ككتاب التهافت » ، إنما كان يصور مذهبه الرسمي ، كما يفهمه أهل السنة ، ولقد أطلق هو نفسه على كتبه هذه ، كلمة « المذهب الرسمي » .

وذلك لأن مذهب أهل السنة ، هو مذهب الدولة التي نشأ في أحضانها ، ومذهب المدارس التي درج في حجراتها ، ومذهب الأساتذة الذين تعهدوه بالتربية والتعليم إلى فترة بعيدة من عمره .

ولذا فإن كتبه الكلامية كلها تردد نغمة واحدة .

قال في مقدمة « الاقتصاد » : [الحمد لله الذي اجتبي من صفوة عباده عصابة الحق وأهل السنة] .

وقال في مقدمة « قواعد العقائد » ؛ [الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة] .

وقال في مقدمة « الرسالة القديسة » : [الحمد لله الذي ميز عصابة السنة بأنوار اليقين] .

ورسالته أيضاً في التوحيد إلى « ملك شاه » تصور مذهب أهل السنة .
 فلا يصح إذن للباحث أن يستمد تأليف هذه الفترة ؛ ويتخذها مصدراً
 لمعرفة الحقيقة في نظر الغزالي ، كما يدين بها وكما يليق الله عليها .
 وأما الفترة الثالثة ، التي اهتدى فيها إلى نظرية الكشف الصوفية فلعلها الفترة
 التي يمكن استمداد تأليفه فيها ، لتصور الحقيقة عنده .
 لكن ليست كل مؤلفات الغزالي في تلك الفترة تصلح لذلك ؛ لأن الغزالي
 لم يتخل في هذه الفترة أيضاً ، عن مذهبه بالمعنيين الآخرين .
 ولقد كان الغزالي نفسه دقيقاً كل الدقة ؛ حينما نبه إلى أن له كتباً خاصة ،
 ضمن بها على الجمهور ؛ أودعها خالص الحقيقة وصريح المعرفة .
 فهو بذلك قد ساعد الباحثين على أن يفهموه فهماً صحيحاً لا لبس فيه
 ولا غموض .

ولعل في هذا ما يفسر لنا كيف أن الغزالي استعمل موازين للحقيقة لم يرض
 عنها بعد أن تصوف ؛ ومع ذلك ظل يعترف بمؤلفاته القديمة ، ويحيل عليها عند
 المناسبة .

٨

استنتاج

ومن دراسة تاريخ حياة الغزالي يمكننا أن نستخلص ما يلي :

أولاً : لم يخرج الغزالي على سنة العصر ، من التزلف إلى الرؤساء ، وطلب
 الجاه والشهرة عندهم .
 ولقد رأينا كيف سعى إلى نظام الملك ، وتردد على مجالسه ، وخاض غمار
 الجدل الذي كانت تدار رحاه أمامه ، ليظهر على أقرانه ، وليطير اسمه في الآفاق .
 وأيضاً ألف وعلم ورفع صوته عالياً مدوياً ، بالدفاع عن الدين والزياد عنه ،
 وباعته على كل ذلك ، ليس وجه الله تعالى^(١) ، بل وجه الرؤساء والحكام الذين

(١) كل ذلك كان قبل عهد التصوف .

كان يهمهم نشر مذهبهم ؛ لأن قيام دولتهم منوط به .

ولقد حدثنا هو عن ذلك في نص المنقذ السابق حيث يقول :

[ثم لاحظت أعمالي : فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أهدقت بي من الجوانب . ولاحظت أعمالي ، وأحسنها التدريس والتعليم ، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة ، ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ؛ بل باعها وبحركها طلب الحياة وانتشار الصيت] .

فلا يمكن أن تتخذ تأليفه في تلك الفترة عنواناً صادقاً على عقيدته : فهو لم يكن يكتب ويؤلف ويعلم ما يعتقد أنه الحق ، بل ما يجلب عليه الشهرة وارتفاع المنزلة .

ولقد كان أكثر تأليفه في تلك الفترة حول تأييد عقيدة أهل السنة والدفاع عنها . ولقد كان أهل السنة في تلك الفترة يضيقون ذرعاً بالمعتزلة والفلاسفة ، ولكنهم كانوا واجدين بين صفوفهم من يجرؤ على مناوأة المعتزلة والرد عليهم ، ولم يكونوا واجدين من يستطيع أن يتقدم إلى الفلاسفة ؛ ليطعنهم بسلاح العلم والمعرفة . أو على الأقل يحول دون هجماتهم ، ويمكن لمذهب أهل السنة من أن يعيش في طمأنينة وأمان ، فكان المجال فسيحاً لمن يريد أن يتقدم لينال من ألقاب الفخار ما تصبوا إليه نفسه ، مما لم ينله أحد قط .

فوجد أبو حامد في هذا مجالاً لإشباع غروره ، فحمل على الفلاسفة حملة عنيفة ، أطارت اسمه في الآفاق ، ورددت في الخافقين ذكره .

وثانياً : أحس بروح العصر المتمردة ، التي كانت تسم بالكفر والزندقة كل من تحدّثه نفسه أن يتصل بالفلسفة والفلاسفة ؛ فأوجس منها خيفة على نفسه وعمل على تفادى شرها .

روى مؤرخوه أنه في مؤلفاته المنطقية استبدل بأمثلة المناطق أمثلة فقهية ؛ ليصور المنطق بصورة عليها مسحة دينية ، حتى يقلل من حدة الجفوة الواقعة بينه وبين رجال الدين .

بل لقد لاحظت في مطالعاتي أن الغزالي لم يقتصر أمره بالنسبة للمنطق على

ضرب أمثلة فقهية ، فقد ادعى أن المنطق ليس علماً فلسفياً صرفاً بل هو علم إسلامي أيضاً .

استمع إليه يقول^(١) :

[وأما المنطقيات فأكثرها على منهج الصواب ، والخطأ فيها نادر ، وإنما يخالفون أهل الحق فيها بالاصطلاحات والإيرادات دون المعاني والمقاصد] .
واقراً قوله في التهافت^(٢) .

[ولكن المنطق ليس مخصوصاً بهم — يعنى الفلاسفة — وإنما هو الأصل الذى نسميه فى فن « الكلام » « كتاب النظر » ، فغيروا عبارته تهويلاً ؛ وقد نسميه كتاب الجدل ، وقد نسميه مدارك العقول . فإذا سمع المتكلمين والمستضعف اسم المنطق ، ظن أنه فن غريب لا يعرفه المتكلمون ولا يطلع عليه إلا الفلاسفة] .
بل لقد تल्पف الغزالي للأمر أكثر من ذلك : فاستخرج المنطق من كتاب الله ، وردة فى أصله الأصيل إلى الأنبياء ، وإلى الكتب السماوية ، وكتاب « القسطاس المستقيم » يدور كله حول هذه الفكرة .
وفى هذا الكتاب يقول^(٣) :

[قال — يعنى مناظره من أهل التعليم — هذه الأسماء أنت ابتدعتها . وهذه الموازين أنت انفردت باستخراجها ؟ !

قلت : أما هذه الأسماء فإنى ابتدعتها ، وأما الموازين فأنا استخراجتها من القرآن . وما عندى أنى سبقت إلى استخراجها من القرآن ، لكن أصل الموازين قد سبقت إلى استخراجها ، ولها عند مستخرجها من المتأخرين أسماء أخرى سوى ما ذكرته ، وعند بعض الأمم السابقة على بعثة محمد وعيسى — عليهما الصلاة والسلام — أسماء أخرى كانوا قد تعلموها من صحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام .

وقد بعثنى على استبدال أسمائها بأسماء أخرى غير ما سمها به ، ما عرفت من ضعف قريحتك ، وطاعة نفسك إلى الأوهام ؛ فإنى رأيتك من الاغترار بالظاهر بحيث لو سقيت عسلاً فى قارورة حجام لم تطلق تناوله ؛ لنفور طبعك من المحجمة ،

(٢) ص ٤٥ .

(١) ص ٣ مقاصد الفلاسفة .

(٣) ص ٢٤٠ .

وضعف عقلك عن أن يعرفك أن العسل ظاهر في أى زجاجة كان .
وكذلك لا تنظر إلى القول من نفس القول وذاته ، بل من حسن صنعته ،
أو حسن ظنك بقائله . فإذا كانت عبارته مستكرهه عندك ، أو قائله قبيح الحال
في اعتقادك ، رددت القول ، وإن كان في نفسه حسناً وحقاً .
فلو قيل لك : قل لا إله إلا الله عيسى رسول الله ، نفر عن ذلك طبعك ،
وقلت : هذا هو قول النصراني ، فكيف أقوله !!! ولم يكن لك من العقل
ما تعرف به أن هذا القول في نفسه حق ، وأن النصراني ما مقت لهذه الكلمة ،
ولا لسائر الكلمات بل لكلمتين فقط :
إحدهما : الله ثالث ثلاثة ؛ والثانية : قوله محمد ليس برسول الله . وسائر أقواله
وراء ذلك حق] .

وهذا تصوير جيد لروح العصر ، جمود وعصبية لفريق ، وجمود وعصبية
على فريق . فالفريق الذى يتعصبون له ، يقبلون منه كل شيء حقاً وباطلاً ،
والفريق الذى يتعصبون عليه ، يردون عليه كل شيء حقاً وباطلاً .
فالغزالي يلاطفهم ، ويسلك معهم شتى الحيل ، ليخفف من عصبيتهم ،
وليتفادى شرورهم ، فهو يبتدع للمنطق الأسمى التى تناسبهم ، وهو يمثل لهم
فيه بالأمثلة التى تناسبهم ، وهو يدعى لهم أنه علم سماوى ، ليس للفلاسفة فى
سوى الاصطلاحات والإيرادات ، وهو يطبق لهم المنطق على القرآن ، ويطبق
القرآن على المنطق .

كل ذلك مسابرة لروح العصر الثائر المتمرد .
والغزالي إن يكن جعل الكتاب فى مخاطبة رجل من أهل التعليم ، فهو يخاطب
العصر كله ، بدليل أنه ردد هذا المعنى فى كثير من كتبه .

وبدليل أنه يقول فى آخر الكتاب : [هاكم قصتي ، مع رفيق من أهل
التعليم ؛ ولم يك غرضى منها تقويم مذهبه ، بل لى غرض آخر أسمى من ذلك وأهم] ،
ثم تمثل بقول العرب : [إياك أعنى واسمعى باجارة] . .
والغزالي فيما يظهر كان يحب مسألة الجمهور ، ويكره أن يكون معه فى
خلاف ، فلم يك صلباً لا يكثرث بغيره ، ولا يقيم لفقوره كبير وزن . يدل على

ذلك أنه كان يتلطف لإقناعه؛ ويحتال لذلك شتى الحيل، كما اتضح من محاولته رفع الجفاء الواقع بينه وبين المنطق.

وكما يتضح من غضبته التي غضبها حين تعرض متعرض لكتاب « الإحياء » بنقد، فقد ثار ثورة شديدة تدل على اهتمامه بتقدير الجمهور، ومحافظته على أن يظل ظافراً بتأييده.

ولكن هل ظفر بما كان يتمنى؟!، الواقع أنه اضطهد وعودى؛ قال ماكدونالد: [وقد صادف في حياته مرارة الاضطهاد كملحد هر طرقي]. والغزالي لم يحدثنا هل كان لحال عصره هذى أثر في إخفاء كتبه التي سماها مضموناً بها على غير أهلها، كما كان الشأن عند غيره من الباحثين، الذين تفادوا ثورة الجمهور، بإخفاء آرائهم؛ كما حدثنا جولد زيهر؟ أم لم يكن لها دخل في ذلك الإخفاء؟! .

وسيمر بنا ما علل به الغزالي ذلك الإخفاء من أن تلك الكتب لا تليق بالجمهور، بل بأكثر المترسمين بالعلم. وليس ببعيد أن يكون لتلك الحال مدخل كسبب مساعد لا كسبب أساسي.